نفي طلب تأجيل دخول الفنيين المصريين الى رأس سودار

الادارة الامريكية تقدم للكونغرس جميع الوثائق المتعلقة بالالتزامات الامريكية

كيسنجر : التسوية المرحلية ذات اهمية كبرى للسلام في الشرق الاوسط

الكونغرس قد يقر نهائياً ايفاد الفنيين الامريكيين الى سيناء يوم الثلاثاء القادم

الأنباء
صحيفة يومية سياسية
٨ صفحات
... – الجمعة ٣ تشرين اول ١٩٧٥ الموافق ٢٨ رمضان ١٣٩٥ العدد ٣٠٢٠ السنة السابعة
אל - אנבא עתון יומי המחיר 60 אג'
AL-ANBA DAILY — JERUSALEM FRI. 3 OCTOBER 1975 VOL. VII No. 3020

القدس – لمراسل خاص – نفت مصادر مطلعة هنا امس ان تكون اسرائيل قد ابلغت الولايات المتحدة بانه نتيجة لعدم اقرار الكونغرس الامريكي بعد مرابطة الفنيين الامريكيين فهي تطلب تأجيل دخول الفنيين المصريين الى رأس سودار يوم الاحد الخامس من الشهر الحالي كما اتفق عليه في البروتوكول التنفيذي الخاص بالاتفاقية المرحلية بين مصر واسرائيل .

واضافت هذه المصادر انه اذا طلبت مصر ادخال الفنيين في هذا الموعد فان اسرائيل سوف تدرس هذا الطلب بصورة ايجابية .

والمعروف انه بناء على هذا البروتوكول يحق لمصر ادخال بين خمسة وعشرة فنيين الى راس سودار في الخامس من شهر اكتوبر الحالي .

وكانت اسرائيل قد وقعت البروتوكول بالاحرف الاولى بينما وقعته مصر توقيعا كاملا . وستوقع اسرائيل البروتوكول توقيعا كاملا عندما يصادق الكونغرس الامريكي على اقرار ايفاد الفنيين الامريكيين الى سيناء .

وقد بدأ الكونغرس امس باتخاذ الاجراءات العملية لتسوية الخلافات بينه وبين الادارة الامريكية من اجل اقرار ايفاد الفنيين الامريكيين الى سيناء . وفي نطاق هذه الاجراءات عقدت لجنة الشؤون الخارجية التابعة لمجلس الشيوخ الامريكي جلستين مغلقتين للاستماع الى شهادة الدكتور هنري كيسنجر وزير خارجية الولايات المتحدة حول التعهدات الامريكية لاسرائيل ومصر في نطاق التسوية المرحلية بين البلدين .

واستغرقت الجلسة الاولى زهاء ساعتين اعلن على اثرها الدكتور كيسنجر ان الادارة الامريكية قدمت للجنة جميع الوثائق التي تعتقد بان لها علاقة بالتعهدات والالتزامات الامريكية .

وقال ان المناقشة داخل اللجنة كانت بناءة غير ان الوقت يمر بسرعة .

البقية على ص ٨ ع ٨

ضمان سوفياتي لسلامة اسرائيل
بعد تنفيذ قرارات الامم المتحدة

موسكو – يونايتدبرس – ابلغ السيد الكسي كوسيجن رئيس وزراء الاتحاد السوفياتي المرشح الديمقراطي للرئاسة في الولايات المتحدة السيد سيرجانت شرايفر ان روسيا تدعم مبدأ عدم المس بالحدود الاساسية لاسرائيل وهي على استعداد لضمان سلامة اسرائيل ولكن فقط بعد تنفيذ جميع قرارات الامم المتحدة .

وقال السيد شرايفر في مؤتمر صحفي عقده هنا ان السيد كوسيجن ابلغه ان روسيا مستعدة للتفاوض مع الولايات المتحدة بشأن الحصول على قمح امريكي مقابل النفط وذلك لمدة ١٥ سنة .

وابدى كوسيجن اهتماما كبيرا بزيادة حجم التبادل التجاري مع الولايات المتحدة وان موسكو تامل بزيادة حجم

البقية على ص ٨ ع ٧

بيرس : دور اساسي للمدرعات في الحروب

القدس – صرح وزير الدفاع شمعون بيرس امس بانه خلال الحروب الاربعة التي خاضتها اسرائيل اعتبر سلاح المدرعات الاساس الذي اعتمدت عليه الدولة في المحافظة على امنها ورغم انه كانت للجيوش العربية افضلية في كميات المدرعات الا ان المدرعات الاسرائيلية كانت ذات افضلية من ناحية استخدامها .

واضاف وزير الدفاع الذي كان يتحدث بمناسبة الاحتفال بعيد المدرعات ان مهام المدرعات تغيرت من حرب الى اخرى غير انه بقي لها الدور الفعال والرئيسي في كل الحروب .

فورد يدعو الى الغاء الحظر على تركيا

واشنطن – يونايتدبرس – كرر الرئيس فورد امس دعوته الى الكونغرس لالغاء حظر بيع الاسلحة الامريكية على تركيا . وقال ان الغاء هذا الحظر سيمكن الولايات المتحدة من تزويد تركيا واليونان وقبرص بالعون اللازم .

وذكر الناطق بلسان البيت الابيض ان الرئيس فورد يعتبر الخطوة المذكورة حيوية لبلاده ولمصالح حلف شمالي الاطلسي والقسم الشرقي من البحر المتوسط .

اختطاف قس فرنسي في تشاد

الجزائر – رويتر – قالت مصادر مقربة من الجبهة الوطنية لتحرير تشاد هنا امس ان قسا بروتستانتيا فرنسيا فقد في تشاد منذ ١٠ حزيران كان معتقلا لدى الجبهة .

واضافت هذه المصادر تقول ان القس بول اوورلا اعتقل خلال عملية قام بها الثوار للتدقيق في هويات جميع الاجانب في تشاد . وشددت المصادر على ان لا علاقة لهذه العملية باختطاف عالمة الاثار الفرنسية فرانسواز كلوستر التي تحتجزها فئة منشقة عن الجبهة يتزعمها حسين هابره منذ ١٨ شهرا .

وقالت المصادر انه سيتم الافراج عن القس اوورلا اذا تبين انه بريء من اي نشاط مناوئ لمصالح شعب تشاد .

وصرحت زوجة القس وهي تتحدث عن اختفاء زوجها في الشهر الماضي انه اختطف في سيارة العاملة بشرقي تشاد في ١٠ حزيران وقد عثر على السيارة مهجورة في وقت لاحق .

ديان : سياسة مصر تغيرت
تجاه اسرائيل والسادات يسعى للسلام

نوكسفيل ، الولايات المتحدة – يونايتدبرس – قال عضو الكنيست السيد موشيه ديان ان الرئيس انور السادات يقوم باجراء تغييرات على سياسة مصر تجاه اسرائيل ، غير ان هناك تناقضا في شروط الدول العربية لاحلال سلام في الشرق الاوسط .

واضاف انه يعتقد ان الرئيس السادات يريد حقا احلال السلام بالمنطقة . وكان السيد ديان يلقي محاضرة في جامعة تينيسي .

وقال ان انهاء حالة الحرب هو الخطوة الاولى نحو تحقيق السلام في الشرق الاوسط . واضاف ان هذه الخطوة تلزم مساهمة الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة وسوريا ومصر .

البقية على ص ٨ ع ٨

احتجاج اسرائيلي على خطاب امين

الامم المتحدة – يونايتدبرس – اعرب امس السيد يغئال الون ، نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية عن احتجاج حكومة اسرائيل الشديد على خطاب الرئيس الاوغندي عيدي امين الذي طلب فيه ابعاد اسرائيل عن الامم المتحدة . كما طالب بتصفية دولة اسرائيل .

وقد اجتمع السيد الون صباح امس بالسيد غاستون توران من لوكسمبرغ ورئيس الجمعية العامة للامم المتحدة . وقال ان ما ورد في خطاب الرئيس امين يناقض ميثاق الامم المتحدة لانه يدعو الى القضاء على دولة عضو في الامم المتحدة . واقوال كهذه تعرقل تحقيق السلام في منطقة الشرق الاوسط .

مصر لن تشترك في أي مؤتمر عربي
ما ظلت سوريا تحمل على الاتفاقية المرحلية

القاهرة – رويتر – اعلنت مصادر وسمية مصرية هنا امس ان مصر لن تشترك في اي مؤتمر يهدف الى تسوية الخلافات العربية حول الاتفاقية المرحلية في سيناء طالما ظلت سوريا تهاجم هذه الاتفاقية .

ويذكر ان مجلة «اللواء» الاردنية كانت قد ذكرت امس الاول انه سينعقد هذا الشهر في الرياض مؤتمر قمة عربي مصغر للبحث في زيادة التضامن العربي وانه سيشترك في هذا المؤتمر الملك حسين ، ملك الاردن والملك خالد ، عاهل السعودية والرئيس المصري انور السادات وربما ممثل عن منظمة التحرير الفلسطينية .

وقالت المصادر الرسمية انها لا تعرف شيئا عن الاستعدادات لعقد مثل هذا المؤتمر مشيرة الى انه من المنطق وقف الهجمات على الاتفاقية المرحلية في سيناء قبل ان تشترك مصر في اي مؤتمر من هذا القبيل .

هذا وواصلت الصحف القاهرية امس انتقادها لموقف الاتحاد السوفياتي من الاتفاقية المرحلية في سيناء ، واتهمت

البقية على ص ٨ ع ٧

روسيا تعارض التدخل في شؤون البرتغال

موسكو – يونايتدبرس – اعلن الرئيس السوفياتي نيقولاي بودغورني عن معارضة بلاده لاي تدخل في شؤون البرتغال الداخلية .

وقالت وكالة انباء «تاس» السوفياتية ان الرئيس السوفياتي تحدث في مادبة اقامها في الكرملين على شرف الرئيس البرتغالي فرنسيسكو ده غوستا غوميز ، الذي وصل امس الاول الى موسكو في اول زيارة له للاتحاد السوفياتي .

تبادل الرسائل بين الملك خالد وبودغورني

موسكو – رويتر – قال الاتحاد السوفياتي ان الرئيس نيكولاي بودغورني ارسل برقية تهنئة الى الملك خالد عاهل المملكة العربية السعودية بمناسبة العيد الوطني للمملكة .

وقالت وكالة انباء تاس الرسمية ان الملك خالد الذي ليست لبلاده علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفياتي والذي كثيرا ما وصفته الصحافة السوفياتية بانه اقطاعي ورجعي قد رد على ذلك متمنيا التقدم والخير للشعب السوفياتي .

ويعتقد ان تبادل الرسائل بين الحكومتين هو الاول من نوعه رغم تردد اشاعات عديدة منذ حرب سنة ١٩٧٣ في الشرق الاوسط مؤداها انهما تدرسان موضوع انشاء علاقات بينهما .

كلمة الأنباء

وفاة الى أسية

...الاتهامات التي يوجهها الى ...يس فرنجية زعماء عدد الطوائف في لبنان ...البة هؤلاء الزعماء ...بقالة الرئيس اللبناني ...مكنها ان تجد الدواء ...في لما يعانيه لبنان ولا ...ها ان تحل مشكلته . ...الدواء وهذا الحل ...نان في نوايا ابناء لبنان ...هم ، من مسيحيين ...سلمين . فابناء لبنان ...تلف طوائفهم هم الذين ...تطيعون حل مشكلة لبنان ...ضع حد للدماء التي ...كب فيه ، وذلك عن ...ريق تمسكهم بالوحدة ...طنية ، تلك الوحدة التي ... الاساس والاصل في ...ستقلال لبنان وسيادته .

اما تلك الاصوات التي ...ت تسمع في لبنان والتي ...دي بتقسيم لبنان فتدل ... النوايا السيئة التي ...مرها اصحاب هذه ...وال للبنان . فتقسيم ...ن ، معناه ، بالطبع ، ...ياع استقلال الدولة ...انية ، ذلك الاستقلال ...ى ضحى اللبنانيون ، ...تلف طوائفهم من اجله ، ...ى بذلوا ، من اجل ...اظ عليه ، جهودا كبرى ...ب ان لا تذهب سدى .

جنبلاط يطالب بحل الكتائب
ازدياد الضغوط على فرنجية لتقديم استقالته

بيروت – يونايتدبرس – طالب امس السيد كمال جنبلاط ، زعيم الحزب الاشتراكي في لبنان بحل حزب الكتائب الذي يتزعمه الشيخ بيار الجميل . واضاف ان الاشتباكات في بيروت ستستمر طالما لا توجد هناك خطة حكومية لتصفية حزب الكتائب بعد حله وتجريد رجاله من السلاح وابعاد العناصر الاجنبية عنه .

وقال السيد جنبلاط انه يصعب اصلاح الوضع في لبنان الى ان ينتخب رئيس يحظى بثقة الجميع .

وكان رئيس الوزراء السابق صائب سلام والسيد ريمون اده زعيم حزب الكتلة الوطنية قد طالبا باستقالة الرئيس سليمان فرنجية . وقد تزايدت الضغوط لاستقالة الرئيس فرنجية من منصبه .

هذا واستمرت الاشتباكات امس في مدينة بيروت وضواحيها . وظلت العاصمة اللبنانية منذ ١٨ ايلول الماضي

البقية على ص ٨ ع ٤

البابا قلق من الاوضاع في لبنان

مدينة الفاتيكان – رويتر – دعا البابا بولس السادس امس الى انهاء القتال في لبنان معربا عن قلقه من استمرار اعمال العنف هناك .

وقال البابا بولس لدى تسلمه اوراق اعتماد السيد بطرس ديب السفير اللبناني الجديد لدى الفاتيكان انه يتابع الاحداث في لبنان باهتمام .

واضاف يقول اننا نتالم لوقوع الضحايا ونصلي من اجل ان يتم التوصل الى حل عادل يتفق عليه جميع الفرقاء .

المخابرات الامريكية ارتكبت خطأ حول قبرص

واشنطن – رويتر – كشفت احدى لجان الكونغرس عن ان وكالة الاستخبارات المركزية قد ارتكبت نقصا بارزا في تقييم ازمة سنة ١٩٧٤ في قبرص .

وكشفت لجنة الاستخبارات التابعة لمجلس النواب عن وثيقة تظهر ان احد عملاء وكالة الاستخبارات زود الوكالة بمعلومات مسبقة عن انقلاب ١٥ تموز الذي جرى ضد الاسقف مكاريوس لكن الوكالة اكدت لمخططي السياسة الامريكية ان ذلك لن يحدث .

فورد يستنكر قرار «اوبيك»
رفع اسعار النفط بنسبة ١٠ بالمائة

اوماها – الولايات المتحدة – استنكر الرئيس الامريكي فجر امس قرار منظمة «اوبيك» رفع اسعار النفط بنسبة ١٠ بالمائة ووصفه بانه قرار مبالغ فيه .

وحذر الرئيس فورد الذي كان يتحدث في لجنة البيت الابيض للسياسة الداخلية من ان يؤدي قرار رفع اسعار النفط الى تفاقم التضخم المالي والى الحيلولة دون الانتعاش الاقتصادي في كل مكان .

واضاف ان القرار المذكور يبرهن بدون شك على انه علينا العمل بسرعة لتحديد مصيرنا نحن في مجال الطاقة .

وصرح امس وزير النفط الكويتي ان دول منظمة اوبيك ستقرر رفع اسعار النفط مرة اخرى في حالة رفع اسعار استيراداتها من الدول الصناعية .

واضاف الوزير الكويتي الذي كان يتحدث في مقابلة تلفزيونية انه يامل ان تكون الاشهر التسعة القادمة اختبارا لنوايا العالم الصناعي لتقليص اسعار انتاجه .

قتلى وجرحى في اعمال عنف بايرلندا

بلفاست – رويتر – لاقى امس اربعة اشخاص مصرعهم نتيجة اطلاق مجهولين النار عليهم داخل احدى الحوانيت للمشروبات الروحية في بلفاست .

كما قتل مدير لاحدى البارات الواقعة شرقي المدينة .

وينتمي القتلى الاربعة للطائفة الكاثوليكية بينما ينتمي الخامس للطائفة البروتستنتية .

واصيب شرطيان بجروح نتيجة انفجار اربع شحنات ناسفة في مناطق كاثوليكية تقع شمال ايرلندا .

جلسة طارئة للحكومة البرتغالية

لشبونة – رويتر – عقد رئيس الحكومة البرتغالية امس جلسة طارئة لحكومته في نطاق الجهود لوقف انتشار اعمال التمرد بين اوساط الجنود في المنطقة العسكرية قرب لشبونة .

وكانت مجموعة من الجنود البرتغاليين قد رفضت قبل ذلك اخلاء محطة اذاعة الا بعد ان اجريت معهم مفاوضات .

وقامت الليلة قبل الماضية فرق من الكوماندو بحراسة قصر الرئاسة بينما ترددت اشاعات لم تتحقق حول نية اوساط يسارية القيام بانقلاب في البرتغال .

وزير خارجية اليمن الشمالي يتوجه لنيويورك

صنعاء – رويتر – غادر السيد عبدالله الاصنج وزير الخارجية اليمنية الشمالية صنعاء الى نيويورك امس ليحضر دورة الجمعية العامة للامم المتحدة .

وصرح السيد الاصنج قبل سفره بانه سيزور بريطانيا وهو في طريق عودته من الامم المتحدة ثم يتوجه الى الجزائر لينقل رسالة من المقدم ابراهيم الحمدي رئيس الدولة الى الرئيس الجزائري هواري بومدين .

وقال ان الرسالة تتعلق بالوضع العربي الراهن والعلاقات بين اليمن والجزائر .

وكلاء امريكيون فتشوا مكتب شميدت

بون – يونايتدبرس – صرح مصدر حكومي في المانيا الغربية فجر امس ان وكلاء تابعين لمصلحة المخابرات الامريكية حاولوا البحث في مكتب المستشار الالماني هلموت شميدت عن وجود اجهزة استماع خفية وذلك قبل قيام الرئيس فورد بزيارة المستشار في شهر تموز الماضي .

واضاف المصدر ان الوكلاء الامريكيين حاولوا ذلك ثلاث مرات ونجحوا في اخرها في التسلل الى غرفة نوم المستشار .

انفجار عبوة في العاصمة الاثيوبية

اديس ابابا – رويتر – انفجرت امس عبوة من المتفجرات في مركز الاتصالات في اديس ابابا مما ادى الى تعطل خدمات الهاتف والتلكس مؤقتا وتحطم مئات النوافذ الزجاجية في منطقة وقوع الحادث .

ولم يعرف بعد المسؤول عن الحادث

رسالة تهديد لملكة بلجيكا

...وكسل – وصف – ذكرت امس ...ك قضائية بلجيكية ان رسالة ... ضد الملكة فابيولا ملكة بلجيكا ...ت من اسبانيا ، وصلت الى رئيس ... ليبرمونت . حيث كان الملك ...ة وزوجته سيزووونها .

...كرت السلطات البلجيكية ان ...ة لم تبلغ لكن اجراءات الامن ...ددت .

اتهام مصري لموسكو
بالسعي لقلب نظام حكم السادات

القاهرة – يونايتدبرس – قالت امس مجلة «المصور» القاهرية ان بعض الخبراء العسكريين السوفيات الذين ابعدوا عن مصر عام ١٩٧٢ ، قد ارسلوا الى اسرائيل اثناء حرب اكتوبر ١٩٧٣ لنقل معلومات عن مصر .

واتهمت المجلة الاتحاد السوفياتي بالقضاء على الرغبات المصرية والسعي لتقويض الوحدة العربية وقلب نظام حكم الرئيس انور السادات .

وهذا هو اكبر هجوم صحفي مصري على موسكو منذ ان حمل الرئيس انور السادات بشدة على السياسة السوفياتية ازاء مصر في عدة خطب القاها في الشهر الماضي . وقد شجب السادات بشكل خاص رفض روسيا تزويد مصر بالاسلحة ومعارضتها للاتفاقية المرحلية الاخيرة .

البقية على ص ٨ ع ٧

انتقاد اتخاذ قرار بدون مشاورة السوق

بون – رويتر – انتقدت المانيا الغربية امس عرض اللجنة الادارية للسوق الاوروبية المشتركة تزويد مصر الفائض الزراعي بدون التشاور مسبقا مع المجلس الوزاري للدول الاعضاء في السوق .

انخفاض قيمة الجنيه الاسترليني في لندن

لندن – يونايتدبرس – استمر امس انخفاض قيمة الجنيه الاسترليني في اسواق العملة البريطانية الى مستوى منخفض جدا اذ بلغت دولارين فقط ولاول مرة في التاريخ .

وذكر خبراء بنوك في العاصمة البريطانية انه يحتمل انخفاض قيمة الجنيه الاسترليني الى اقل من دولارين حتى نهاية الاسبوع اذا لم يتدخل البنك المركزي البريطاني في الموضوع .

استدعاء مندوب المنظمة بطوكيو الى بيروت

طوكيو – وصف – بعثت منظمة التحرير الفلسطينية امس برقية الى مندوبها في طوكيو خضر منصور ليعود الى بيروت لاجراء مشاورات حول مهمته في اليابان .

واعلن هذا المندوب ، الذي حاول اقناع اليابان بالاعتراف بمنظمته ، انه سيعود الى بيروت في الايام القريبة .

وكانت اليابان قد اكتفت بمنح منظمة التحرير مكتبا لها في طوكيو .

فورد يستقبل الامبراطور الياباني

واشنطن – يونايتدبرس – استقبل امس الرئيس الامريكي بحفل رسمي كامل الامبراطور الياباني الذي يزور الولايات المتحدة في اول زيارة رسمية يقوم بها امبراطور ياباني منذ الحرب العالمية الثانية .

اعلان بلدية الخليل

تعلن بلدية الخليل للمواطنين الكرام بانها ستستقبل المهنئين بعيد الفطر السعيد في اول ايام العيد في دار البلدية من الساعة الثامنة وحتى الساعة العاشرة صباحا .

وكل عام وانتم بخير

محمد علي الجعبري
رئيس بلدية الخليل

المحاميان حسين الشيوخي واسماعيل عبده

ينعيان وفاة الوجيه المعروف

رضوان الحلو

تغمد الله الفقيد برحمته والهم آله وذويه الصبر والسلوان
وانا لله وانا اليه راجعون



حديث رمضان

وداعاً لشهر رمضان ..

بقلم : فريد وجدي الطبري

في مستهل هذه الخاطرة البسيطة المتواضعة ، يطيب لي حقا ان اقتبس نبذة من اعمال واقوال السلف الصالح كانت تقرأ في المساجد في الاسبوع الاخير من شهر رمضان المبارك يوميا .. ولجمال كلماتها ودقة معانيها رأيت ان انقلها حرفيا :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله واصحابه اجمعين . يا عباد الله قد علمتم ان رمضان راحل ولم يبق لشوال الا الحلول ، مضى وانقضى كأنه ما كان وشهد على المسيء بالاساءة وعلى المحسن بالاحسان ، فزودوه بالطاعة يا اخوان واحذروا الحقد والحسد والقلول وادركوا ما بقي من شهركم بالاجتهاد واغتنموا اواخر شهر الوداد وحصلوا الزاد ليوم المعاد ، واعلموا انه يوم مهول ، وودعوا شهركم هذا وداع الاحباب ، وقولوا : لا اوحش الله منك يا شهر الثواب ، لا اوحش الله منك يا شهر الغفران ، لا اوحش الله منك يا شهر القرآن ، لا اوحش الله منك يا شهر القيام ، لا اوحش الله منك يا شهر الايتام ، لا اوحش الله منك يا شهر التراويح ، لا اوحش الله منك يا شهر المفاتيح ، لا اوحش الله منك يا شهر المصابيح ، لا اوحش الله منك يا شهر الذكر والتسابيح ، لا اوحش الله منك يا شهر انحطاط الاوزار ، ليت ايامك علينا بالدوام تطول . كانت مساجدنا فيك بالخيرات معمورة ، ومصابيحنا فيك بالانوار مشهورة ، وذنوبنا فيك بعفو الله مغفورة ، فهنيئا لمن هو فيك مقبول .

قال عليه الصلاة والسلام شهر رمضان معلق بين السماء والارض لا يرفع الا بزكاة الفطر . وقال عليه الصلاة والسلام : لو تعلم امتي ما في رمضان من الخير لتمنت ان يكون رمضان السنة كلها . (وعنه) انه قال : ان الله يعتق في كل ليلة من رمضان ستمائة الف عتيق من النار فاذا كان اخر ليلة ، منه اعتق بقدر ما مضى . ولو اراد الله للسموات ان تتكلم لشهدت بصائم رمضان بالجنة .

هذه كلمات السلف الصالح ، رحمهم الله واسكنهم فسيح جناته وغفر لهم ولنا وجعلهم قدوة لنا ، ورابطة بين الدين الحنيف والتقوى وبيننا . كانوا يعيشون في اجواء رمضان الشهر كله بايامه ولياليه ، يقيمون الصلاة ويأتون الزكاة ويحضون على طعام المسكين ولا يمنعون الماعون ، يبتعدون عن الشر .. والمجون . كانت قلوبهم طاهرة طيبة ونظراتهم عفيفة ، والفاظهم والسنتهم نقية وملابسهم محتشمة ، وايديهم نظيفة ، يحبون الخير لبعضهم البعض وللناس اجمعين ، لا يهابون في الحق لومة لائم ، ترتسم الوداعة على محياهم ويطفح البشر من وجوههم . ويعم السلام دنياهم .. يطعمون الطعام على حب الله ... لا يبغون شهرة ولا جزاء ، يكظمون الغيظ ، يتسون الاساءة . يسعون لاحلال الصلح والسلام بين الناس . يقطعون في سبيل ذلك مسافات بعيدة متحملين المشقات والصعوبات ، يحبون التعاون والتزاور ويتبادلون الهدايا ، عاملين بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : تعارفوا ، تحابوا ، تزاوروا ، تحابوا ، وتهادوا ، تحابوا .

افلا يحق لنا ، بل يجدر بنا ، ان نذكرهم على الاقل في اجواء رمضان وعلى ضوء ذكرياته ؟ لقد كانوا ملح الارض حقا ، وبهجتها ، ايصعب علينا ان نقتدي بهم ؟ الا يجدر بنا ان نغرس بذورهم الباقية في قلوبنا وفي بيوتنا في معاهدنا واماكن عملنا ، في حقولنا وحدائقنا ، علها تنبت من جديد مزهرة يانعة ، فتغدو من بعيد .. مصابيح سلم باقية ومن قريب .. نفحات عطر منعشة ؟ جعلهم الله في كنفه في رحاب الرحمة والسلام ، وجمعنا بهم يوم الزحام ، في ديار الخلد ، في دنيا الجنان .

اما بعد ، اخي الصائم الكريم ، فهيا نودع رمضان الحبيب بالزكاة كما استقبلناه بالصلاة ، نحدث ابناءنا وبناتنا عنه ، ونترك في جيراننا وفي ارحامنا واهلنا ، وصحبنا اطيب ذكرى واجمل اثر له وندعو الله صادقين مخلصين ان يساعدنا على العيش بعد طيلة العام على نهجه وهداه ونترقب عودته بشوق .. طيلة العام ، اعاده الله عليك وقد وضعت — ونفذت — خير الخطط لحياة افضل .. وايام اسعد وعيش ارغد ، وفق برنامج جديد شامل لحياتك .

وافتح قلبك السليم ، الخالي من كل غش ، الغافر لكل انسان اساء اليك ، النادم على كل سيئة .. العازم على تقوية ايمانه بالله ، والسير على تعاليمه وسننه والطالب رضاه ، اذكر الانبيا والصالحين ، والمؤمنين اجمعين اذكر اباءك واجدادك واخوتك واخواتك وذويك . اذكر الجار والصديق ، اذكر المريض والفقير والبائس ، اذكر المظلوم بالخير فقط ، اطلب الصحة وما تشتهي نفسك اطلب النسل والخلف الصالح الناجح اذكر بلادك وامتك وانسانيتك اذكر واقم الذكر .

ولا تنس ان تقول : اعاد الله علينا رمضان المبارك العظيم وعلى العالم اجمع بالسلام والخير واليمن والبركات ، وكل عام وانت والدنيا بخير .

بناء مدرسة في شفاعمرو

تعتبر من احدث مدارس الوسط العربي

الناصرة — من محمد شريف — انجزت بلدية شفا عمرو بناء المدرسة الرسمية ج ذات طابقين مؤلفة من ١٢ غرفة تدريس ، بالاضافة الى غرف الادارة والمرضة وقاعة كبيرة ، بلغت تكاليفها قرابة مليون ونصف ليرة ، منها حوالي نصف مليون للاثاث والادوات المدرسية وتسوية الملاعب .

وكانت مساهمة وزارة المعارف والثقافة مبلغ ٤٣٥ الف ليرة قرض طويل الامد قدم للبلدية . وتعتبر هذه المدرسة من احدث المدارس التي تم بناؤها في الوسط العربي وافاد رئيس البلدية السيد ابراهيم نمر حسين ان البلدية لا زالت تستأجر الغرف المدرسية المبعثرة هنا وهناك في المدينة وغير صالحة للتعليم . ولذلك فهي تطالب وزارة المعارف والثقافة دائما وبالحاح ان تقدم قروضا مضاعفة ، وكذلك منح مالية للمدينة العربية الثانية في اسرائيل حتى تتمكن من اقامة المزيد من الابنية المدرسية ، والتغلب على ما يسمى بنقص الغرف ، دفعة واحدة والى الابد . والبلدية من جهتها لا تبخل بل لديها الاستعداد للمساهمة في تمويل مشاريع البناء . الا ان الوزارة يجب ان تضاعف مساعداتها ايضا .

غرامة ٦٠٠٠ ليرة على مهرب بضائع

تل ابيب — فرضت محكمة الصلح في تل ابيب امس غرامة مقدارها ستة الاف ليرة على احد سكان يافا بعد ان ادين بتهريب ٣٠٠ قميص وبعض الاجهزة في السنة الماضية .

وتقدر الضرائب المستحقة على هذه المواد باكثر من ٣٠٠٠ ليرة .

فرصة للبيع

أجهزة كاملة لمقهى — مطعم

* اثاث يشمل طاولات ، كراسي ، رفوف وما شابه .
* اجهزة مطبخ (مكسر كبير ، ماكنة كبيرة لتقشير البطاطا ، افران ومواقد غاز وما شابه) .
* ثلاجات تجارية : غرفة تبريد ٢٫٥٠ × ١٫٦٠ × ١٫٦٠ تلائم ايضا الملاحم وكذلك ثلاجات صغيرة وكبيرة .

جميع الاجهزة في وضع جيد

الاتصال حتى تاريخ ١٥-١٠-٧٥ بتلفون ٥٣٦٠١٥ في ساعات النهار . وفي ساعات المساء بتلفون ٥٢٦٧١٨ حيفا .

امساكية رمضان

الجمعة ٢٨ رمضان ١٣٩٥هـ
٣ تشرين الاول ١٩٧٥ م

	دقيقة	ساعة
الامساك	٤٥	٣
الفجر	٠٥	٤
الشروق	٣٣	٥
الظهر	٣٩	١١
العصر	٠٢	٣
المغرب	٢٩	٥
العشاء	٥٠	٦

× × ×

السبت ٢٩ رمضان ١٣٩٥هـ
٤ تشرين الاول ١٩٧٥ م

	دقيقة	ساعة
الامساك	٤٦	٣
الفجر	٠٦	٤
الشروق	٣٤	٥
الظهر	٣٩	١١
العصر	٠١	٣
المغرب	٢٨	٥
العشاء	٤٩	٦

استعداد مدن وقرى الضفة لاستقبال عيد الفطر السعيد

يقول مندوبنا في الضفة الغربية — محمد عميره — ان جميع مدن وقرى الضفة الغربية بدأت اعتبارا من صباح يوم امس بالاستعداد لوداع شهر رمضان المبارك واستقبال عيد الفطر حيث بدأ الاهالي من مختلف القرى والبلدان المجاورة بالتوافد على المدن الرئيسية لشراء حاجيات العيد من ماكولات وحلوى وملابس جديدة حيث غصت المحلات التجارية بآلاف الزوار .

واقيمت في الساحات الرئيسية في المدن اراجيح العيد والالعاب الخاصة للاطفال بينما توجه الالاف من المواطنين اعتبارا من عصر امس الى مدينة القدس لتادية صلاة الجمعة الاخيرة في المسجد الاقصى والحرم الابراهيمي صباح اليوم . وقام الحاج معزوز المصري رئيس بلدية نابلس صباح امس بزيارة لسجن نابلس حيث قدم خلالها التهاني للسجناء وقدم لهم ٥٣٠ علبة من الحلويات و ٣٠ علبة اخرى لسجناء سجن الرملة وهي مقدمة من اهالي نابلس بالمناسبة . وقد استمع خلال هذه الزيارة الحاج معزوز المصري التي رافقه فيها السيد محمد عبد الهادي والسيد وليد الستيته وهو من اعضاء المجلس البلدي والسيد سليم كعتاني ممثل البلدية الى مطالب السجناء بالافراج عنهم وتحسين احوالهم . وقد وعدهم الحاج المصري برفع مطالبهم الى حاكم نابلس العسكري ، كما قام رؤساء البلديات في شمالي الضفة بزيارات معايدة مماثلة . هذا واعلن قاضي نابلس الشرعي ان المحكمة الشرعية ستبقى مفتوحة بعد صلاة المغرب من يوم غد السبت لمراقبة هلال شهر شوال .

استعدادات العيد في قرى المثلث

المثلث — من بسام جابر — بمناسبة قرب حلول عيد الفطر المبارك تشهد قرى المنطقة سلسلة من الاستعدادات لاستقبال العيد السعيد .

ويلاحظ في هذه القرى ان ثمة تهافت كبير من الاهلين على محلات الازياء وذلك لابتياع ملابس العيد للاطفال .

هذا وستغلق المدارس والمؤسسات والمكاتب الرسمية في تلك القرى مدة اربعة ايام .

نشاطات اجتماعية في مدرسة يمه الثانوية الزراعية

المثلث — من بسام جابر — تنظم في مدرسة يمه الثانوية الزراعية حاليا سلسلة من النشاطات الاجتماعية لطلبة وطالبات المدرسة وذلك بالاضافة لمواد التعليم المهنية التي يتلقونها فيها .

وضمن نطاق هذه النشاطات الاجتماعية افتتحت مؤخرا دورتان لتعليم الطباعة على الالة الكاتبة ، الاولى لفتيات صفوف الثاني عشر والاخرى لفتيات صفوف الحادي عشر في المدرسة .

وتشترك في كل دورة حوالي ثلاثين طالبة ، وتستغرق ثلاثة اشهر تحصل الخريجة في نهايتها على شهادة من المعهد الثقافي في طولكرم ومدرسة يمة الزراعية تؤهلها العمل كطابعة في المستقبل .

وعلى ضوء الاقبال على هاتين الدورتين فقد تقرر فتح دورة مماثلة لطلاب صفوف الحادي عشر والثاني عشر في المدرسة وستبدأ في مطلع الاسبوع القادم .

وجدير بالذكر ان المشتركين والمشتركات في هذه الدورات يساهمون بمبلغ رمزي في سبيل سد النفقات بينما تغطي المدرسة بقية المصاريف من صندوق النشاطات الاجتماعية .

وعلم من مركز النشاطات الاجتماعية في المدرسة الاستاذ رفيق حاج يحيى ان ثمة نية لاقامة عدة حلقات ودورات ولقاءات ونشاطات تربوية ورياضية مختلفة خلال السنة الدراسية الحالية وذلك في اطار برنامج النشاطات الاجتماعية للسنة الدراسية الحالية .

٦٣ صفاً للمتخلفين عقلياً في مدارس الوسط العربي بالبلاد

يركا — من مزيد حسن صالح — صرح امس السيد سمير ورور مفتش التعليم الخاص في وزارة المعارف والثقافة ، اثناء جولة تفقدية للصفوف الخاصة في مدارس الشمال ان عدد الصفوف الخاصة التي تشمل الطلاب الصم والبكم والمكفوفين والمشكلين والمتخلفين عقليا تبلغ هذه السنة ٦٣ صفا من عرب السيد في النقب جنوبا الى قرية مسعدة في هضبة الجولان شمالا هذا بالاضافة الى ١٨٤ حصة للعلاج الفردي للمقعدين والمرضى في بيوتهم وفي المستشفيات ، بينما كان عدد الصفوف في السنة الماضية ٢١ صفا و ١٦٤ حصة .

اضرار بمحصول العنب في الخليل

الخليل — لمراسلنا — قام السيد مدير زراعة منطقة الخليل السيد كمال خريشة ومدير قسم الوقاية في دائرة الزراعة بجولة على مزارع المنطقة للاطلاع على الاضرار التي لحقت بمحصول العنب من جراء الامطار الغزيرة التي هطلت خلال اليومين الماضيين .

وصرح مدير الزراعة في اعقاب الجولة ان الاضرار التي لحقت بمحصول العنب لا تكاد تذكر نظرا لان معظم المزارعين يتبعون الطريق المعلقة «المعرشات» في زراعة الكرمة .

هذا وتتوجه يوميا عشرات الشاحنات الى الاردن لتصدير محصول العنب .

ترميم عقارات وبيوت في شرق القدس

القدس — من اميل خزعل — قامت بلدية القدس مؤخرا باصلاح وترميم العقارات والبيوت العربية في البلدة القديمة بالتنسيق مع شركة «براوزوت» للبناء ووزارة الاسكان . ويذكر ان مهندسي البلدية يقومون بين الفترة والاخرى بفحص البيوت في البلدة القديمة للوقوف عن كثب على وضعها خوفا من التداعي او الانهيار الذي قد يسبب خطرا على ارواح السكان . ومن بين الاصلاحات التي قامت بها البلدية ترميم عقار وقف الخالدي في باب السلسلة وعقار الحسيني في حي القيمري ووقف النشاشيبي في باب السلسلة والذي تقطنه خمس عائلات . ومعظم هذه العقارات تابعة للاوقاف وتسكنها عائلات محدودة الدخل .

توقيع الاتفاقية الثقافية مع بلجيكا

القدس — يوقع اليوم في وزارة الخارجية البروتوكول لتحديد تبادل الثقافة والعلوم بين اسرائيل وبلجيكا وذلك بمناسبة اختتام دورة اللجنة المشتركة لتنفيذ الاتفاقية الثقافية بين البلدين .

وسيوقع على البروتوكول عن الجانب البلجيكي السيد فرد دتيه المدير العام للتعليم العالي في وزارة الثقافة البلجيكية ، اما عن الجانب الاسرائيلي فسيوقع على البروتوكول الدكتور ايا جيفن مدير الدائرة للعلاقات الثقافية والعلمية في وزارة الخارجية .

وتقضي الاتفاقية على تبادل المنح والاساتذة والعلوم في مجال التربية ، وتزويد الجامعات البلجيكية بكتب عن اسرائيل وتعليم اللغة العبرية فيها .




تهنئة

احر التهاني الى الدكتور يوسف غيتان نائب مستشار رئيس الحكومة للشؤون العربية بمناسبة عودته من الولايات المتحدة بعد ان حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة يوتا .

تهانينا له والف مبروك

احمد سليم زيدان

— يمه —

دار للبيع

مؤلفة من غرفتين ونصف ، شارع الجبل (الام) رقم ٤٠ حيفا . الاتصال هاتف ٠٤/٥٢٢٧٠٣

الجمعة اليتيمة تصادف اليوم

القدس — من اميل خزعل — من المتوقع ان يفد الى مدينة القدس اليوم — يوم الجمعة اليتيمة — من شهر رمضان المبارك حوالي ٢٠٠٫٠٠٠ شخص لاداء صلاة الجمعة من مختلف انحاء اسرائيل والضفة الغربية وقطاع غزة وسيناء .

وقامت مديرية الاوقاف باتخاذ التدابير اللازمة لاتاحة الفرصة امام الاف المصلين لاداء الصلاة في المسجد الاقصى المبارك ، بينما تستعد الشرطة لتنظيم السير في البلدة القديمة اثناء الصلاة . وكان قد اقيم ليلة امس الاول احتفال في المسجد الاقصى المبارك بمناسبة ليلة القدر اشترك فيه العديد من المصلين .

وزارة التجارة والصناعة

تعمل على تقليص ارتفاع الاسعار للاستهلاك

القدس — أعلن امس المسؤول عن الاسعار في وزارة الصناعة والتجارة ان وزارته ستركز جهودها في المستقبل على تقليص نسبة ارتفاع الاسعار بالنسبة للمستهلك وذلك من جراء التخفيض وزيادة مساهمة المنتجين والمسوقين في امتصاص الغلاء .

وذكر المسؤول عن الاسعار الذي كان يتحدث في اجتماع قطري لنشيطي المصلحة المركزية للاستهلاك عقد في مبنى اللجنة التنفيذية للهستدروت في تل ابيب ، انه من الوهم الاعتقاد ان الاسعار لن ترتفع في المدة القريبة غير ان تصرف جمهور المستهلكين الذي سيقرر اخيرا تطبيق هذا الارتفاع .

واضاف انه في الاشهر الاخيرة اجرى مراقبو وزارة التجارة والصناعة نحو ٣٦ الف عملية مراقبة للاسعار والاوزان والمقاييس وعرض الاسعار في حوانيت مختلفة في البلاد . وقدمت ١٦٠٠ دعوى قضائية ضد المنتجين والتجار الذين خالفوا القانون .

وستقوم الوزارة قريبا بزيادة قاعدة المراقبة في هذا المجال .

وذكر ايضا ان حملة التخفيضات في بعض المواد الاستهلاكية ستستمر خلال الشهر الحالي وذلك بالاشتراك مع شبكات التسويق .

استئناف العلاقات

بين اسرائيل وروسيا مدار بحث في موسكو

مطار بن غوريون — اعلن امس عضوان من الوفد الاسرائيلي الذي زار موسكو مؤخرا بناء على دعوة لجنة السلام السوفياتية انهما ابلغا من قبل السلطات في الاتحاد السوفياتي ان استئناف العلاقات بينه وبين اسرائيل يجب ان يأتي نتيجة مساعي اسرائيلية لاثبات رغبة اسرائيل الحقيقية والعملية في الاتفاق على تسوية في المنطقة .

وصرح عضو الكنيست دوف زاكين (مبام) الذي كان يتحدث في مطار بن غوريون بالاضافة الى عضو الكنيست ابراهام ليفنبراون (راكاح) ان عضو السوفيات الاعلى الكسندر تشايكوفسكي اكد له ان الاتحاد السوفياتي ايد ويواصل تأييد قيام دولة اسرائيل والحفاظ على امنها وانه يرفض اطلاقا فكرة القضاء على دولة اسرائيل وتشير كافة الدلائل الى ذلك منذ ان صوت الى جانب مشروع اقامة الدولة وحتى التصريحات الاخيرة من قبل زعماء الاتحاد السوفياتي .

وذكر عضو الكنيست ليفنبراون ان الاتفاقية المرحلية لن تؤدي بعد تنفيذها الى استئناف العلاقات وانما الى اشتراك اسرائيل في مؤتمر جنيف وابرازها تقدمها العملي نحو التوصل الى التسوية سيؤديان الى ذلك .

واعرب عضو الكنيست زاكين عن تقديره لامكانية حدوث تطورات في العلاقات السوفياتية — الاسرائيلية نتيجة للزيارة .

وتشمل الوفد الذي ضم ايضا الاديب دفيد شوحم والصحفي امنون كابليوك والسيد يعقوب ريفتين ، بيانا مشتركا بمناسبة اختتام الزيارة .

وذكر في البيان ان اعضاء الوفد يؤيدون فكرة منح ضمانات لاتفاقيات سلام في المنطقة ، من قبل الدولتين العظميين ووفقا لسياسة اسرائيل بالنسبة لسياسة الوفاق بينهما .

وشكر اعضاء الوفد الاستقبال الودي والمعاملة الطيبة التي لاقوها اثناء مكوثهم في الاتحاد السوفياتي .

حركة تجارية نشطة بالخليل بمناسبة العيد

الخليل — لمراسلنا — قامت بلدية الخليل بتزيين ميادين المدينة وشوارعها الرئيسية بالانوار الكهربائية بمناسبة حلول عيد الفطر السعيد . وتشهد اسواق المدينة حركة تجارية نشطة استعدادا للاحتفال بالعيد السعيد .

وسيستقبل سماحة الشيخ محمد علي الجعبري رئيس بلدية الخليل المهنئين بمناسبة العيد في مبنى البلدية وذلك من الساعة الثامنة حتى العاشرة صباحا من اول ايام العيد .

بيغن يعارض الانسحاب من الجولان

مطار بن غوريون — غادر البلاد امس عضو الكنيست مناحيم بيغن متوجها الى كراكاس عاصمة فنزويلا ، بناء على دعوة الجالية اليهودية هناك .

وصرح عضو الكنيست بيغن قبيل مغادرته البلاد انه يعتقد انه لا حاجة لايفاد الفنيين الامريكيين الى سيناء اذ هناك معارضة قوية لهذا الامر ايضا في اوساط امريكية عديدة .

وعقب على الانباء التي ترددت عن امكانية الانسحاب من الجولان في نطاق اتفاقية مرحلية مع سوريا بقوله مثل هذا الانسحاب يعد دعوة لمازيد من الضغوط في الشمال وليس خطوة نحو السلام . واضاف ان الاغلبية في اسرائيل يعارضون ذلك .

منطقة صناعية لمنطقة المرج في الشمال

الناصرة — من محمد شريف — انه بموجب التخطيط الهيكلي للواء الشمالي فقد خصصت منطقة صناعية لمنطقة المرج عيمق يزراعيل في الاراضي الواقعة ما بين قرية نين ودبورية . وتشمل هذه المنطقة ما يزيد عن ... دونم ، وستكون المركز الصناعي للمدن الناصرة والناصرة العليا ومجدال عيمق والعفولة وقراهم .

عرض مشاكل القرى الدرزية امام رئيس الكنيست في القدس

القدس — استقبل امس السيد يسرائيل يشعياهو رئيس الكنيست مجموعة من الجنود الدروز زارت الكنيست في نطاق جولة تعليمية تقوم بها في القدس .

واعرب السيد يشعياهو انه يشعر بعميق الامتنان للقائه بالجنود الدروز واضاف ان ثمة تقديرا من الصعب التعبير عنه بالكلمات للمهام الصعبة والخطيرة والمسؤولة التي يقومون بها من اجل امن الدولة وكرامتها .

وذكر انه لو كانت في منطقتنا انظمة حكم ديمقراطية فان السلام سيحل لكي تزدهر المنطقة وتتطور .

وقال ان الاسئلة التي وجهت اليه تطرقت الى اندماج الجيل الشاب وتقدمه اذ ان الطرق للحل غير بعيدة . والتيار الشديد للتطور الاقتصادي ، الاجتماعي والثقافي يجب ان يصلكم .

وعرض الجنود الدروز على رئيس الكنيست المشاكل التي تواجه القرى الدرزية في مجالات التعليم والتطوير والعمل والتاهيل المهني لهم بعد تسريحهم .

ووعد السيد يشعياهو بدراسة هذه المشاكل ومشاكل الجندي الدرزي المسرح من جيش الدفاع الاسرائيلي بشكل خاص ، بالاتفاق مع اللجان اللائقة في الكنيست وايضا بالنسبة لبقية المواضيع .

احكام عسكرية على مسلحين

رام الله — نظرت المحكمة العسكرية امس في رام الله بقضية خالد الزواوي وصبحي موسى احمد عيد من مخيم الجلزون والمتهمين بالعضوية للمنظمات والتدرب على السلاح وحيازة اسلحة والمذكورين كانا مطاردين وقد سلما نفسيهما للشرطة بتاريخ ٤ اذار الماضي .

وقد قررت المحكمة القاء عقوبة الحبس لمدة ثلاث سنوات على كل منهما اعتبارا من تاريخ تسليم انفسهما للشرطة . واعتبرت المحكمة عمل المتهمين بتسليم انفسهما سببا مخففا للعقوبة واخذته بعين الاعتبار .

كما اصدرت المحكمة العسكرية على المتهم مفلح صالح مصلح وتزيه احمد محمود زيادة من بيت اللو والمتهمين بالعضوية تقديم ملجأ ومساعدة مشردين بعقوبة السجن لمدة عشرة اشهر لكل منهما اعتبارا من تاريخ توقيفهما اعتبارا من اوائل اذار الماضي .

معارضة رفع الاسعار في الفنادق

القدس — اعربت وزارة السياحة امس عن معارضتها لقرار اتحاد الفنادق رفع الاسعار في الفنادق بالعملة الصعبة بنسبة ١٥ بالمائة ، ابتداء من مطلع شهر اذار القادم .

وترفض الوزارة اجراء اي رفع في الاسعار بالعملة الصعبة تجاه السياح وذلك لانها ترى ان على فرع السياحة في البلاد ان يصمد امام منافسة دول سياحية بديلة .

وذكر الناطق بلسان وزارة السياحة انه خلافا لما يدعي اصحاب الفنادق فان سياسة التخفيض الزاحف حسنت الى الان الوضع في الفنادق .

وزير المواصلات يزور كندا وامريكا

مطار بن غوريون — غادر البلاد امس السيد غاد يعقوبي وزير المواصلات متوجها الى الولايات المتحدة وكندا برفقة مدير عام شركة «العال» للطيران وذلك لاجراء محادثات مع المسؤولين عن الطيران المدني في الدولتين .

وسيجتمع السيد يعقوبي اثناء زيارته التي ستستغرق عشرة ايام بوزير المواصلات الكندي ليبحث معه امورا مشتركة تهم البلدين في مجال الطيران المدني .

فرصة للبيع

ثلاجة تكور ١٠ اقدام بحالة ممتازة ، ٨٠٠ ليرة

على الراغب الاتصال بهاتف ٠٤-٦٤٢٩٤٣ ، ٠٤-٦٦٣١١٩

لذا اردت ان تتعرف على التراث الروحي الدرزي من اوثق مصدر ، اقرأ

سيرة الامير السيد جمال الدين عبد الله التنوخي والشيخ محمد ابي هلال المعروف بالشيخ الفاضل

لمؤلفه :

عجاج نويهض

يطلب الكتاب من فؤاد مداح في البقيعة او من وكلاء «الهدى» في القرى الدرزية .

الى أبناء الناصرة الجامعيين

ندعوكم بهذا الى حضور الاجتماع العام للطلاب الجامعيين من ابناء الناصرة الذي سيعقد اليوم الجمعة ٣-١٠-٧٥ الساعة الرابعة في قاعة بيت الصداقة

حضوركم ضروري لاهمية الموضوع

سكرتارية اتحاد لجان الطلاب العرب في جامعات البلاد

وصلت بضاعة جديدة

من

مولدات للاضاءة

انتاج بلاك اند ديكر

انجلترا

ذات تجهيز عالي ٣٣٠٠ واط

باسعار متهاودة خاصة

الاتصال : غولدشتاين وكوهين م.ض.

حيفا ، طريق الاستقلال ٥٧ تلفون ٠٤-٥٢٨٦١٠

اعـــلان

ايها المستمع العزيز لبرامج دار الاذاعة الاسرائيلية

العلم والدين والحياة من رسالة الاذاعة وبرامجها الخاصة للمستمعين .

وقد كانت مسابقة رمضان في حلقاتها الاسبوعية مجالا من هذه ... والحلقة الاخيرة منها هي كسابقاتها في اضواء القرآن الكريم والسيرة والتاريخ وستذاع في الساعة الرابعة والنصف من بعد ظهر الجمعة ٣-١٠-١٩٧٥ (اليوم) .

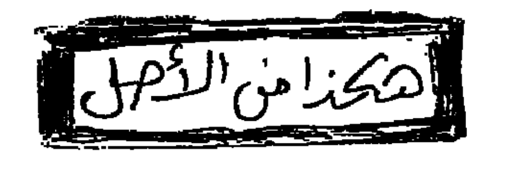
ونزولا على طلبات الكثيرين ستعاد اذاعة الحلقة الاولى منها في ... العاشرة من ظهيرة يوم الاثنين القادم ، ابان عيد الفطر المبارك .

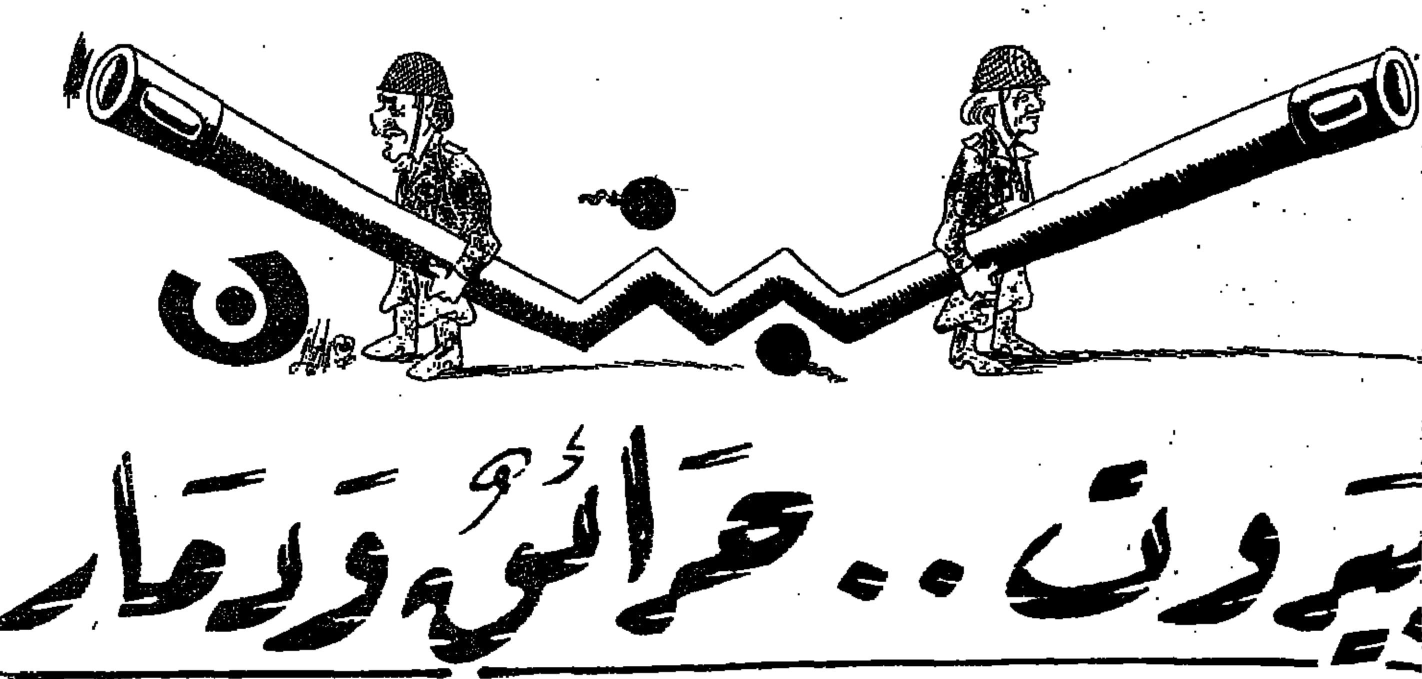
في الجرائم الخطيرة كالقتل مثلا تقرر المحاكم عادة توقيف المتهم على ذمة المحاكمة ريثما تقرر المحكمة في مصيره ادانة او براءة ، ولكن هل يمكن للنيابة توقيف المتهم لكي تصدر المحكمة قرارا بتوقيفه ؟

ثم ما هو موقف القانون من السائق الذي يتسلم مخالفة سير بعد ... من وقوع المخالفة ، هل يحق للمحكمة ان تدينه .

ثم ما هو الصحيح ان تقول دخل علي «خلسة» او خلسة ، ومن ... على حين غرة او غرة .

الاجوبة على هذه الاسئلة وغيرها ستستمع اليها مع مجموعة من ... والالحان والقابلات وجها لوجه والاقوال والاشعار والموسيقى ما بين الساعة الثامنة والتاسعة والنصف من صباح يوم السبت القادم وضمن برنامج استوديو رقم واحد .





بيروت .. حرائق ودمار









احد عشر يوما من الاقتتال في بيروت تركت صورة من ابشع الصور التي عرفها تاريخ العاصمة اللبنانية .. اذ ان ما حدث خلالها من حرائق ودمار كان على نطاق واسع قارب بحجمه وبشاعته كل ما يمكن ان ينجم عن حرب اهلية ..

ان الاقتتال الذي شهدته بيروت خلال الاحد عشر يوما الاخيرة تركها وبحق مدينة حرائق ودمار .. مدينة اشباح بعد ان كانت تنبض بالحياة على مدار الساعة دون ان تعرف شيئا اسمه الخوف وندم الثمانينة .. ودون ان تعرف شيئا اسمه الموت في كل لحظة . بعد ان مرت في امر تجربة في عام ١٩٥٨ عندما اصبحت لاول مرة في تاريخها الحديث مسرحا لحرب اهلية ..

ولم تكد بيروت تنهض على رجليها من ثقل وطاة الاقتتال الطائفي فيها وتتقدم بخطوات بطيئة نحو الهدوء والامن والاستقرار من جديد . حتى عادت عجلة الزمن الى الوراء مرة اخرى وانتشرت المتاريس في شوارعها وتجددت الاشتباكات .. الامر الذي زاد من القلق والمخاوف من اتساع نطاق هذه الاعمال لتتحول الى جولة خامسة في غضون خمسة اشهر ..

ولا يختلف اثنان على ان لغة الحديد والنار وحمامات الدم اصبحت ظاهرة مألوفة في بيروت خاصة وبقية «المعاقل» الطائفية في لبنان عامة منذ شهر نيسان الماضي .. ولا يختلف اثنان ايضا على ان اسباب هذه الظاهرة الاثيمة . التي انزلت النكبة تلو النكبة بساحة لبنان . عديدة وان جذورها تعود الى «الميثاق الوطني» غير المكتوب الذي وزع حقائب الحكم على مختلف الطوائف في لبنان

وكثيرون هم الذين يتحدثون عن ضرورة اعادة النظر في هذا «الميثاق» وبالتالي اعادة توزيع حقائب السلطة .. وكثيرون هم ايضا الذين يعارضون مثل هذا الاجراء بشدة متناهية .

كما ان كثيرين هم الذين يشكون في ان المياه ستعود الى مجراها الطبيعي في لبنان ، اذا ما تم اعادة النظر فعلا في توزيع حقائب السلطة ..

والحق يقال ان هذه الفئات الثلاث تظل على صواب في موقفها . ما دام همها الاول والاخير هو تجنيب بلاد الارز «وسويسرا الشرق» المزيد من الحرائق والدمار ..

ولكن هذا سيبقى حتما طالما بقيت هناك ايد اجنبية تلعب في الظلام الطائفي في لبنان بكل حرية «تبيع وتشتري» بحرية . وتزيد صفحات اخرى مكتوبة بالدم في تاريخ لبنان الذي اصبح اليوم بحاجة ماسة ليزوغ فجر جديد من الامن والاستقرار والسلام ..

وهذا الفجر الذي لابد من ان يبزغ لا يمكن ان يأتي الا بعد انقشاع الليل المظلم الطويل الذي يعيشه لبنان هذه الايام ..

وهذا الظلام اذا ما اريد له ان ينقشع فلا بد من ان تتم تسوية بعض الامور الجوهرية وعلى راسها تحقيق المصالحة الوطنية في جو يخلو من تاثير العوامل الاجنبية والاعتبارات الانانية الذاتية التي نكبت لبنان حتى اليوم باربع جولات من الاقتتال الطائفي في غضون نصف عام . وكلفت «سويسرا» الشرق عددا من الضحايا اكبر مما يمكنها ان تتحمله اذ ان مقارنة بسيطة جدا تدل على ان عدد الضحايا الذين سقطوا خلال الجولات الاربع من قتلى وجرحى يعادل عدد افراد الجيش اللبناني وقوامه ١٨ الف فرد ..

ولا يمكن للبنان ان يتخلص من نفوذ الدوائر الاجنبية التي تضمر له الشر ، وان يتحرر من الاعتبارات الذاتية الانانية الا اذا قامت زعامة جديدة فيه لا تعترف بالنعرات الطائفية وانما تعترف بمصلحة لبنان فقط وسيادته وكرامته كبلد عريق كان الى الامس القريب معقلا من معاقل الديموقراطية، وانموذجا من نماذج التسامح والتعايش بين ابنائه ومن جميع الطوائف بدون استثناء .

جوال

المدارس الخاصة .. إلى أين !

بقلم فؤاد زهير

...الحياة في تطور .. اسعار الحاجيات الضرورية كانت او كماليات ـ في ارتفاع مستمر ، اجور المنازل ايضا تركب سائرة .. ومع ذلك فقد ... هذا كله وغيره من الامور العادية ... تحدث في جميع دول العالم .

... المدارس الخاصة في القدس تزداد ... رسومها . وقد يكون هذا ايضا من ... الطبيعية ولكن . على اي اساس ... هذه الزيادة ؟

... هل اخذت المدارس الخاصة ... الاساس السليم في زيادة الرسوم بعين الاعتبار ؟ .

... الناس هذه الايام يقولون ... الاخرون .. «يرحم ايام زمان» عندما ... التعليم برغيف من الخبز . وكان ... التعليم في (الكتاب) او المدرسة التي ... من غرفة او غرفتين ..

... حتى عندما وصلنا المدارس الثانوية ... تشعر بما يسمى برسوم التعليم، ... وان المدارس الخاصة لم ... حتى عام ١٩٦٧ ما يزيد على ... دنانير اردنية في التوجيهي .

... هذه الايام يصاب بالبلاء من يفضل ... او ابنائه وهنا البلاء اعظم ... التسجيل في روضة اطفال خاصة. ... اصبحت الرسوم وتوابعها تصل الى ... من (١٥٠٠) ليرة اسرائيلية في ... الايام بالنسبة لطالب الصف ... الهيدي ، هذا دون اخذ ثمن ... بعين الاعتبار .

... اريد ان يفهم مما ذكرت انني ... عملية رفع رسوم المدارس الخاصة

ولكن الاهم من ذلك كله ان العملية يجب أن تكون كاملة من جميع زواياها فاذا قررت المدرسة رفع رسوم التدريس . فلا بد من ان نقرر كذلك ادخال تطورات تتناسب وهذا الارتفاع في الرسوم .. اما ان تفكر المدارس الخاصة برفع الرسوم فقط . فهذا لا يقبله المنطق .

فباسم الاباء جميعا نطالب المدارس الخاصة باعادة النظر في رفع الرسوم، وتوفير احتياجات الطلاب على المستوى الذي يتناسب وارتفاع الرسوم .

هذا من جهة ، ومن جهة اخرى ،فان هناك بعض اولياء امور الطلاب ،الذين لا يتمكنون من ابقاء ابنائهم في المدارس الخاصة بسبب اوضاعهم المادية الصعبة . وفي اعتقادنا ان مثل هذه الحالة يجب ان توليها المدارس الخاصة العناية الخاصة . والا فالترجمة الحقيقية لعدم اخذ هذا الامر بعين الاعتبار سيكون التشجيع على ابقاء الابناء في الشوارع .

وكلمة اخيرة نوجهها الى اصحاب الضمائر الحية . من اصحاب الشان ان يعملوا على تصحيح الوضع بما فيه المصلحة العامة ، وعدم ارغام الناس على الاقدام على امور لا يقدم عليها ولي امر الا مضطرا . ونعني بذلك تشريد ابنه في الشوارع عرضة للضياع .



السياسة الاقتصادية، الضرائب، وخفض قيمة الليرة

حين شرحنا في هذه الزاوية قبل اسبوعين ،مغزى التخفيض الزاحف والقضايا الاقتصادية التي تواجهها الحكومة . قلنا انه من غير المستبعد ، ان تفرض قريبا ضرائب جديدة ، وان تخفض قيمة الليرة بنسبة اكبر . وفعلا قررت الحكومة هذا الاسبوع تخفيض سعر الليرة بنسبة ١٠ بالمائة ليصبح سبع ليرات للدولار .

كما قررت الحكومة اتخاذ سلسلة اخرى من الخطوات منها فرض ضريبة شراء اخرى بنسبة ١٠ بالمائة على منتجات وخدمات تسري عليها هذه الضريبة الان . وكذلك رفع سعر الوقود بنسبة ٢١ بالمائة .

ونتيجة لذلك فقد رفع ايضا سعر الكهرباء بنسبة ٢٦ بالمائة (اي ٧ اغورات لكل كيلواط ساعة) وسعر المياه بنسبة ٢٥ بالمائة .

وادى قرار الحكومة هذا الى موجة غلاء فورية . والاعتقاد السائد هو ان

بقلم ابو نعيم

هذا الغلاء سيرفع جدول غلاء المعيشة بنسبة ٥ ـ ٦ بالمائة .

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو : لماذا قررت الحكومة اتخاذ هذه الخطوات الاقتصادية ؟

لقد ارادت الحكومة تحقيق ثلاثة أهداف رئيسية :

- تقليص العجز في ميزان المدفوعات (اي الفارق بين الواردات والصادرات)
- زيادة حجم الصادرات .
- امتصاص حوالي ملياري ليرة من الجمهور لسد جزء من العجز المتوقع في ميزانية الحكومة حتى نهاية السنة المالية ١٩٧٥/١٩٧٦ . ويتوقع ان تصل قيمة العجز الى خمسة مليارات ليرة .

ولكن ما لا تريد الحكومة امتصاصه من الجمهور فهي تامل في الحصول عليه بطرق اخرى مثل بيع سندات قرض وغيرها .

ولم تكن الخطوات الاقتصادية للحكومة بمثابة سر . ففي نهاية الاسبوع الماضي راجت اشاعات بين الجمهور حول النية لاجراء تخفيض كبير على قيمة الليرة (بالاضافة الى التخفيض الصغير الزاحف بنسبة ٢ بالمائة شهريا) وكذلك فرض ضرائب جديدة.

وادت هذه الاشاعات الى حركة شراء نشطة في الحوانيت (خاصة في حوانيت المنتجات الكهربائية) وزيادة كبيرة في سعر الدولار في السوق السوداء الذي وصل الى اكثر من ثماني ليرات في نهاية الاسبوع الماضي ، كما ان النشاط في البورصة كان اشد تحسبا لارتفاع قيمة السندات المرتبطة بجدول غلاء المعيشة .

والان كيف تنوي الحكومة امتصاص الاموال من الجمهور ؟

ان زيادة قيمة الدولار الى سبع ليرات سيدخل لخزينة الدولة مبلغ ٤٥٠ مليون ليرة اما ضريبة الشراء الاضافية بنسبة ١٠ بالمائة فستدخل للخزينة حوالي ٥٥٠ مليون ليرة - وستدخل زيادة سعر الوقود للخزينة ٦٥٠ مليون ليرة كما ستدخل الضريبة المفروضة على البنوك والتي ستزداد بنسبة ٥ بالمائة مبلغ ٥٠ مليون ليرة . وقد وعدت الحكومة مع ذلك بعدم الغاء المساعدات المالية التي تقدم للمنتجات الغذائية الاساسية (السوبسيديا) وذلك بضغط من الهستدروت ، كما لن تزيد اجور السفر في المواصلات العامة . ولم تجر الحكومة تقليصا اخر في ميزانيتها لكنها قررت تجميدها . وهذا يعني انها لن تزيدها رغم ان نفقاتها ستزيد ب ٤٠٠ مليون ليرة نتيجة الغلاء الاخير .

لكن الحكومة اعلنت انها ستقلص في الجهاز الحكومي بمعدل ٢٠٠٠ موظف منهم ٥٠٠ في السنة المالية الحالية . وعادة لا يوجد اي ميل لاقالة الاف الموظفين . لكن الوظائف الشاغرة نتيجة احالة موظفين على التقاعد . او نقل موظفين من دائرة الى دائرة او من منصب لاخر . لن تشغل ثانية . وبهذه الطريقة تقلص الحكومة من نفقاتها .

لماذا اختارت الحكومة هذه الخطوات؟

لم تتوفر امام الحكومة امكانيات كثيرة اذ لم تستطع الحكومة اتخاذ قرار حول زيادة ضريبة الدخل . لانه في شهر تموز الماضي فقط . دخل الاصلاح في ضريبة الدخل حيز التنفيذ ، واعلنت الحكومة في حينه ان الاصلاح جاء للتسهيل على الجمهور وليس تحميله عبئا ثقيلا .

ومن ناحية اخرى لا يمكن للحكومة زيادة رسوم الاستيراد والرسوم

البقية على الصفحة السابعة

من يوميات مواطنه

تناقضات مذهلة في مواقف موسكو

بقلم فاضل جميل

(١)

السجادة السميكة الوثيرة التي وقفت عليها موسكو طيلة نيف وعقدين من الزمن اخذ الاخرون يسحبونها من تحت اقدام كبرى دول المعسكر الشرقي ..

النفوذ السوفياتي في الشرق الاوسط ، وفي واحدة من اكبر واهم دوله بدأ يتخذ حالة الجزر بعد ان عرف حالة من المد ، واخرى من الثبوت ..

مصر التي ظل السوفيات يراهنون عليها خلال سنوات طويلة ، تقلب الان ظهر المجن لقادة الكرملين وتاخذ في الابتعاد تدريجيا عن مواقف التجانس مع موسكو .

(٢)

الفرق كبير جدا بين مصر الامس ومصر اليوم ـ هكذا يبدو الامر وفي غيبة المنطق . للسوفيات .

مصر الامس ـ مصر عبد الناصر ومصر السادات . كانت فيما مضى بلدا تقدميا ، رائدا للتحريات . ومنارا للتقدم ليس في الشرق وحده ، وانما في افريقيا . بل وفي العالم الثالث كله

ومصر اليوم ـ مصر السادات هي مثال للانحراف عن جادة القومية وللخروج عن سبيل البناء والاعمار . انها دولة يبيع فيها ساداتها وزعماؤها قضاياهم القومية ، ومصائرهم بحفنة من الدولارات الامريكية .

الفرق كبير بين مصر اليوم ومصر الامس مصر الامس تلقت السلاح بكميات هائلة لا حصر لها من الاتحاد السوفياتي

مصر الامس ربطت اقتصادها وهيكل ثرواتها القومية ـ القطن ـ بالسلاح السوفياتي رهينة لسنوات طويلة .

مصر الامس ـ استوعبت الاف الخبراء العسكريين السوفيات وادخلت من النافذة استعمارا جديدا .

مصر الامس ـ آمنت بما دسه لها زعماء الكرملين من اساطير واشباح الهجومات الاسرائيلية فغرقت حتى اذنيها في حرب ضروس ذهبت بالالاف من خيرة ابنائها .

مصر الامس هذه كانت تقدمية اشتراكية بناءة .

(٣)

مصر اليوم ـ تبتعد عن الحرب وتتخذ طريقها نحو السلام . فتوقع على اتفاقيتين لفصل القوات في سيناء .

مصر اليوم ـ تحاول الخروج باقتصادها من بين براثن الجشعين والطامعين في هذا الاقتصاد الفقير نسبيا بطبيعة الحال

مصر اليوم ـ تتوصل الى اتفاق مع الولايات المتحدة يكفل لها المساعدات الاقتصادية التي لا يرتبط عطاؤها بادخال الالاف من الخبراء العسكريين الى اراضيها ، وسيطرة خبراء كهؤلاء على وحدات جيوشها .

مصر اليوم ـ تفضح ما ذهب اليه زعماء الكرملين حين غرروا بها وزجوها في اتون الحرب .

مصر اليوم ـ اذن . دولة رجعية عميلة للاستعمار الامريكي خادمة لاغراض الامبريالية والصهيونية .

بعبارة اخرى : مصر المتجانسة مع الاتحاد السوفياتي هي دولة عصرية تقدمية . ومصر المتجانسة مع مصالحها المبتعدة بشعبها عن الاستعمار هي دولة رجعية عميلة .

(٤)

قبل نحو شهرين . وعندما وافقت مصر على تمديد انتداب القوات الدولية في سيناء . وصفت (برافدا) الناطقة بلسان الحزب الشيوعي السوفياتي هذا القرار بانه حكيم يدل على حصافة راي وحكمة . حتى (الاتحاد) صحيفة الشيوعيين الاسرائيليين اوردت هذا الموقف في صفحتها الاولى تحت عنوان ثانوي : تقدير للموقف المصري ، وان كانت اتبعته بعلامة استفهام يعلم كنهها محررو (الاتحاد) وحدهم .

آنذاك لم تكن مصر قد اتخذت موقفا من موضوع الاتفاقية الثانية لفصل القوات مع اسرائيل . بل ان التقارير اشارت في حينه الى تعثر المحادثات حول هذا الموضوع .

ولكن . وبعد اقل من شهر على ما كتبته (برافدا) وبعد ان اتضح موقف مصر من الاتفاقية . وبعد ان وضحت الرؤيا . تكتب (برافدا) اياها متهمة مصر بشتى انواع الاتهامات محاولة النيل من عروبتها ومن قوميتها .

الان بعد ان دقت الاتفاقية الثانية مسمارا اضافيا في نعش النفوذ السوفياتي في المنطقة .. الان، بعد ان بدا واضحا ان الولايات المتحدة تحاول ملء الفراغ الذي خلفه انحسار موجة النفوذ السوفياتي .. الان ، اخذت اجهزة الدعاية السوفياتية ومعها اجهزة عربية متجانسة مع موسكو . تجهز بكل ما لديها من طاقات للطعن في مواقف مصر متجاهلة ما كانت بالامس القريب تقوله من اطراء وثناء على مصر ومواقفها .

(٥)

ياخذون على مصر قبولها للمساعدات الامريكية . في حالة غريبة من النسيان او التناسي . لا يذكر هؤلاء انهم امدوا مصر بمساعدات ، لم تكن اقتصادية في غالبيتها الساحقة . طيلة السنوات .

بل ويتناسى هؤلاء ـ قادة الكرملين ومن وراءهم ـ انهم مازالوا يغرقون دولا عربية معنية وعلى رأسها سوريا بالاسلحة الحديثة .

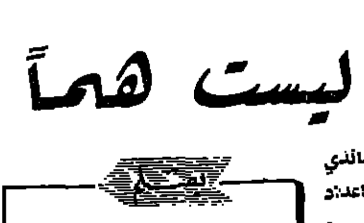
ويتناسى هؤلاء القادة امعانا ومغالاة منهم في التناسي انهم هم كانوا في عداد الذين توجهوا بطلب المساعدة وحصلوا عليها من الولايات المتحدة .

أي منطق غريب : ان يساعد الروس

البقية على الصفحة السابعة

كلمة

الزوجة ليست هماً



بقلم حسني البيطار

في برنامج ـ عادات وتقاليد ـ الذي يقدمه التلفزيون الاردني . من اعداد التلفزيون المصري . وهو يتضمن تمثيليات قصيرة . تدور موضوعاتها . حول مشاكل الاسرة والزواج ،والعلاقات بين الزوجين .. وتهدف الى اصلاح بعض الاخطاء والتصرفات . في اسلوب فكاهي .. وتقوم السيدة عقيلة راتب، ببطولة الحلقات التمثيلية ،بالاشتراك مع عدد من الفنانين المعروفين . ومنهم، عبد العظيم عبد الحق . وليلى طاهر.

في البرنامج المذكور . يبرز دور ـ ناعسة ـ زوجة الشيخ سنطاوي ، وهي تمثل الزوجة الغلبانة . التي تخضع لسلطان الرجل . وتتقبل احكامه . بكل هدوء وصبر .

الست ناعسة ، تقع في ورطات مستمرة ، وترتكب اخطاء كثيرة ، بسبب جهلها وسوء تدبيرها ،وتتعرض للوم زوجها وانتقاداته ، وفي بعض الاحيان . يوجه الزوج الغاضب الضرب الى الزوجة البائسة ..

وقد اعتاد الشيخ سنطاوي على مخاطبتها بلقب ـ يا همي الكبير ـ تعبيرا عن ضيقه وتبرمه من تصرفاتها.

وانا ارى ان اختيار هذا اللفظ .كاسلوب لمخاطبة الزوجة هو امر غير مقبول . ولا يدل على الاحترام والتقدير ويقلل من كرامة المراة ..

لان اختيار هذه العبارات . يترك اثارا سيئة في نفوس المشاهدين وخصوصا . بين الاطفال . الذين يسارعون الى تقليد كل ما يسمعونه او يشاهدونه . ويكثرون من ترديد هذه العبارات الضارة .. ويترك كل ذلك اسوأ الاثر في سلوكهم وعاداتهم.

واذا كنا نهدف الى تحقيق اصلاح حقيقي في مجال الاسرة والعلاقات بين الافراد . فعلينا ان نختار العبارات اللائقة ، او الاساليب المهذبة في المخاطبة والحديث .. ونبتعد عن اساليب البهدلة او السب .. لان الزوجة ليست ـ هما ـ !

ومن واجب المسؤولين في اجهزة الاعلام ، ان يهتموا بكتابة البرامج ، والتمثيليات ، التي تساعد على تحسين الذوق . والمحافظة على الاحترام الواجب للزوجة .

وعلينا ان نذكر ، ان الخطوة الاولى لقيام اسرة صالحة ، تتوقف على تحقيق التفاهم والتعاون بين الزوجين ، على اساس المساواة والاحترام المتبادل . وتوفير الحقوق الطبيعية للمراة .

الآمال الثلاثة

...ذا تكتب لكم ايها القراء ؟

...هل ما زلتم تقراون ؟

...لماذا تقراون ؟

...كي تجدوا في السطور بارقة امل؟ ...احوجنا الى بياعي الامال ... ...كيف السبيل والارض دماء ... ورصاص ؟

...ذا نكتب لكم ايها القراء ؟ ... بارقة امل نعطيكم والاقلام ... صلاحا مما قبل التاريخ ؟

... هل تملك الحقائق لنعلن لكم املا؟ ... ما نملك هو نتائج ما يصنعه ... الاحداث : يتامرون فنكتب ... مؤامراتهم من دون ان نجرؤ على ... انهم يتامرون ، ويقتلون فنعد ... الضحايا من دون ان نجرؤ على ... من قتلهم ، ويفشل الساعون الى ... التدهور فنقول لكم : المساعي ... .

...الحقيقة الوحيدة التي نستطيع ان ... لكم انتم تعرفونها . وهي انه لم ... في لبنان دولة تحمي شعبه .

... هذه الدولة ، في هذه الحكومة ... وفي هذا الشعب ايضا ابطال، ... على رغم شجاعتهم واندفاعهم، ... انه لم يعد في امكانهم ان يحموا ... ويعيدوا الامن الى شعبه .

... ؟

...اسباب كثيرة ، منها ان الحكم لا ... في حجم الجراة الكبرى المطلوبة،

ومنها ان المؤامرة . على ما يظهر . اسرع منه .

اي مؤامرة ؟ لا احد يعرف . من كثرة الجهات المستفيدة منها لا يستطيع احد ان يدل على جهة واحدة . لكن الجميع باتوا يلمسون انها مستمرة

بقلم : انسي الحاج

بنجاح ، والجميع يتحدثون عنها كانها امر مالوف ، والجميع ادركوا الان ان ما حسبناه سببا مبررا للاحداث تحول في الواقع الى حجة استغلتها اليد الخفية لتفجير التقاتل .

لمصلحة من هذه المؤامرة ؟ ما نقطة انتهائها ؟ اين تتوقف ؟

لا احد يعرف .

ولكن ما نفع المعرفة بعد ما حصل ؟ لقد نجحت المؤامرة بفصل الوطن ضدين . ونجحت بارجاعنا اكثر من مئة سنة الى الوراء . ونجحت بهدم صيغة التعايش الطائفي .

الان لننظر الى الامام ولنبحث عما يمكن ان نفعل للبدء من جديد ، حتى لا يهاجر الذين لم يهاجروا بعد ان لم يكن هربا من الاخرين وخوفا ، فهربا وخوفا من انفسهم .

اي امل بقي للبنان ؟

ثلاثة :

. المعجزة .

او حكم يصبح معجزة خارقا .

او ، ايها الشعب ، ثورتك انت .

ثورة الاكثرية الضحية التي تدفع من ابريائها ضريبة الدم لمغانم الانتهازيين ومصالح السياسيين ومؤامرات المتامرين وعجز العاجزين .

ثورتك انت . ثورة الشعب اللبناني وقد وحده نفاد الصبر وصهره العذاب واعاده غضب الصبر الى رشده الانساني وصوابه الوطني . فيتجاوز التباغض الطائفي ، ويتخطى رواسب الاحداث، ويعلو على جراحه ، ويبج سد الشلل والخضوع ، ويتدفق كالنهر الهائل على ارض الوطن يكتسح في طريقه قاتليه وجلاديه والمحاربين بدمه . ويعيد الحياة ويعيد الوحدة ، ويعيد البناء من جديد

ثورتك انت كالنهر .

النهر الذي ارض لبنان ارتوت بالدم وما رواها ، النهر الذي ارض لبنان ييبسها الشوق اليه وما زالت تنتظره. نهر الخلاص .

× × ×

... لكننا نحلم اذ نطالبك بالثورة نحلم ونهذي . فنحن نطالبك بثورة على قاتليك وانت في ثورات بعضك ضد البعض .

موزع انت ايها الشعب شعوبا . موزع طوائف وانتماءات . والثورة التي كان يمكن ان تكون فيك ثورة

البقية على الصفحة السابعة





قصة — سر ان استطعت في الهواء رويدا

ها هو جوهر يهبط في المصعد من انطابق الثامن ، بعد ان قابل رجلا مشاكسا ، لم يتصور يوما قط ان مثله موجود على الارض . لكن وظيفته اضطرته الى مقابلته ، فلا بأس . اليس من المفيد ان تعرف من يقاسمك تنفس الهواء ؟

فتح باب المصعد حتى قبل ان يتوقف وقبل ان يمسكه جوهر لان الزحام منعه حتى من الخروج في سهولة .

وجه قدميه نحو المدخل في تثاقل وتطلع الى التي تسرق وقته ولا يستطيع الا حملها ، فاذا هي تشير الى الرابعة عشرة ..

وقف على الرصيف لا يقدر على المشي لان الحيرة انبتت في طريقه حواجز اليأس .

زحمة الشارع وحناجر السيارات المنطلقة حينا والواقفة احيانا لم تفك جوهر من اسر تلك المقابلة التي اكلت ستين دقيقة اكثر مما حدد لها .

مد يده الى جيبه فارتطمت بعلبة اللفافات التي تنام هناك لايام قبل ان يستهلك لبها ويرمي قشرتها .

استخرج منها واحدا على عشرين واشعله ، فكان الدخان الضوء الاخضر الذي حرك رجليه فمشى . لكن مشيه كان كطيران السنونو بلا هدف ، انما في اتجاه واحد . جوهر . ما بك ؟ اين بسمتك ؟ اين تفاؤلك ؟

خاطب نفسه واستجمع قواه ليقلب وجه العملة المتشائم في شخصيته وليمتطي وجهها الاخر المتفائل . ولكن هيهات ان يتم له ذلك في تلك السهولة . الضجر كالذباب . يحوم على شيء فتطرده ولكنه يعود اسرع مما طردته فلا تدعه يدخل ابدا .

جوهر ! هل تنسيت اليأس ؟ خليفة الضجر . ذلك اليأس الذي يعمر والذي «لا يفنى ولن فبرواه» .

لا تدع اليأس يزورك لانه ليس كبقية الزائرين ، فزيارته لا تنتهي .

عاد جوهر الى صحته الان نوعا ، وبدأ يحس بالناس حوله وهو ما زال يسير فبان له البحر واتسع الرصيف

توقف واستدار نحو البحر فنقله بزرقته من حال الى حال ، فترك نظره يسبح في ملعبه اللامحدود .

اعجبته المهادنة الدائمة المعقودة بين الشاطىء والبحر ، بل بين الماء والرمل والصخر .

يهجم الماء فيتراجع الرمل والصخر . يتراجع الماء فيهجم الرمل والصخر ، ولكن هل تنبه الرمل والصخر الى ايام محاولا ابتلاعهما ؟

رأى جوهر البحر يضحك طويلا لانهم اخبروه مؤخرا عن تهديد عمرو بن كلثوم بملء ظهره سفنا .

ادار ظهره للبحر وعبر الشارع الفسيح ينظره فتسمرت امام عينيه بوابة صدئة ، كان يجب ان تموت منذ زمن طويل ، بل هي ميتة في مكانها ولكن لم تدفن .

عبر جوهر الشارع برجليه هذه المرة ووقف امام تلك البوابة يتأملها فاذا في وسطها رسم جمجمة بشرية شبعت من موت الموت .

صمم جوهر على الدخول ليرى ما في الداخل ولكن من اين ؟

امن هذه البوابة التي هي كتلة واحدة ويمكن ان تقع عليه ان هو لمسها او دفعها ؟ او يفتش عن مدخل اخر ؟ او يقفز فوق الحائط ؟

لكن الحائط عال وليس هناك مدخل اذن لا بد من معالجة البوابة .

دفعها في بطء فتحركت زاويتها سنتيمترات فاستبشر ودفعها اكثر ، وكان التراب متحكما في اسفلها فازاحه الى ان انفتحت ليمر في صعوبة .

انه في ارض المقبرة فشكر ربه على ان البوابة لم تستقبل احدا منذ شهور

خطا بضع خطوات كجندي في حقل الغام ، فاحس بشيء غريب يسري في جسمه ولكن ما هو يا ترى ؟ هل الخوف؟ ام رهبة الموت ؟ ام نهاية الانسان ؟ ام الانتقال من الخارج الى الداخل ؟ ربما كان هذا الشيء مزيجا مما تقدم كله . هذا هو المكان الوحيد لا خصام فيه ولا تعديات ، فالسكوت يخيم وكذلك العدم .

يا للغرابة ! قالها جوهر لنفسه وهو في مكانه ، بعث بنظره ليزور القبور المتشابهة المصفوفة والتي تفصل واحدها عن الاخر مسافة متر تقريبا ، وهذا المتر يقل مترا ، فلا طمع ولا احتلال اواضي من قبيل «النزلاء» .

بينما هو في هذه الحال ارتفعت الضجة والمسبات والشتائم في الخارج فخدشت سمعه . كادت الضجة تصبح عراكا داميا لولا تدخل الاخرين وكان السبب تزاحم بين سائقين على المرور

الى هذا الحد وصلت السخافة بابن الانسان ؟ الا يستطيع التفاهم بالكلام؟ واذا تعطلت لغة الكلام فلكي تفسح للغة العيون وليس للغة الجنون .

تقدم جوهر خطوات ثابتة والقبور عن جنبيه ، فاذا يد ابي العلاء تضربه على كتفه وتقول له :

«سر ان استطعت في الهواء رويدا» .. ولكن كيف يمكنه ان يسير في الهواء؟ على كل حال ، سيخفف الوطء ما استطاع حتى ان جلد الارض لن يشعر بقدميه .

رأى اسراب اليمام تهبط وتطير مغردة بين الرخام الابيض . فاكبر تغريدها في عقد دار الفناء .

ثم جوهر لم ير في حياته طائرا يبكي او يتذمر او يئن الا بعد ان يصيبه رصاص الانسان او تغرز سكينه في نحره . كم يختلف الطائر عن الانسان في هذه الناحية ، فالثاني يقطب غيره ويلعن عند اقل حادثة تصيبه .

انعطف نحو اليمين وسار في ممر مماثل ووقف مشدوها امام قبر لا كبقية القبور . قبر لم تتصدر لوحة رخامية تحمل اسم صاحبه وتاريخ مجيئه الى هذه الارض ورحيله عنها ، بل زينته لوحة يمكن ان يضمها معرض .

قرفص جوهر امام تلك اللوحة وبدا يتأملها ، انها تمثل جسرا امام ركيزته اليسرى طفل في مهده يشهق للمرة الاولى وامام ركيزته اليمنى صندوق خشبي مستطيل يدخله انسان محسوف يزفر لاخر مرة .

على الجسر المنتصب كقوس قزح اناس قليلون يسيرون في فرح بينما الكثيرون يسقطون من على الجسر وهم بعد في اوله او في منتصفه فيتلقفهم نهر الحياة المنساب هناك ويوصلهم الى الركيزة اليمنى ليتركهم متابعا سيره الى ما لا نهاية .

ثم رأى الكثيرين ايضا يتركون الركيزة اليسرى من دون ان يعتلوا الجسر بل يكتفون بالتخبط في ذلك النهر دون ان يروا نهايته ، فلا يلبث ان يتركهم في الركيزة اليمنى متابعا هديره . مفتشا عن سابحين جدد .

مهلا فاللوحة لم تكتمل بعد فهناك عبارة فوقها كأنها سماء لها تقول : «قليلون الذين يعيشون» .

سحر ذلك المشهد جوهرا فلا يعرف بالضبط على اي جزء يركز عينيه .

وقف محاولا الافلات من ذلك اللجو الذي يضع الانسان امام مرآة الوجود وهو يلتشي ، لكن قهقهة الحارس اوقفته فاستدار ليراه مقتربا منه متأبطا كومة عظام كما يتأبط الحطاب رزمة الحطب

قال له الحارس اذ تفحصه مليا : جئت تتعرف هذا المكان باكرا ؟ كيف رأيته ؟

— جرتني الصدفة ، ولم اكن اعلم ما هنا حتى دخلت فقادني السكوت وارجو ان تسامحني ان انا خالفت القوانين .

— (بعد ان قلف بعقب لفافته التي كادت تحرق شفتيه) القوانين التي تعرفها لا نطبق هنا ، لان الاموات قانونهم واحد لا مطاطية فيه . انت راعيت حرمة الساكنين هنا وجئت تتعرف ما لا بد ان تتعرفه . ولكن من اين دخلت ؟

— من هذه البوابة عالجتها حتى فتحتها .

— لهذا السبب لم اره عندما دخلت فنحن لا نستعمل البوابة منذ مدة . كان يجب ان تدخل من البوابة الرئيسية

— بسيطة .. ارجو ان لا اكون ازعجتك . تفضل اشعل لفافة .

— لا اغير نوع «سواكيري» فهي ثخينة تعبىء الرأس .

— انا ذاهب . هل تأمرني بشيء ؟

— سلامتك . لا شك انك جري . ما اسمك ؟

— جوهر . وافتش عن الجوهر .

— يظهر انك وجدته . ارجوك ان تزورني من حين الى حين . قبل ان تزورني محمولا .

— سابذل جهدي . ولكن زيارتي الاخيرة لن تكون هنا . بل هناك .

— في هذه المسائل . هنا مثل هناك .

ابتعد جوهر على ضحكة الحارس الكارجة حتى وصل الى البوابة التي دخل منها وحشر نفسه وخرج معيدا البوابة

وقف على الرصيف ليتخلص من كابوس «الداخل» ، ثم سار الى دكان واتصل هاتفيا بزميله في الشركة يعلمه بوصوله . وبينما هو يرد السماعة لفتت نظره هذه العبارة المكتوبة على جبين الالة : «الحياة حلوة» .

مارون يوسف سعد

المعري عدو المرأة (٣٦٣ هـ ـ ٤٤٩ هـ)

بقلم : انطون حنا فرح — كفر ياسيف

لمحة عن حياته :

هو احمد بن عبدالله بن سليمان المعري التنوخي . ولد في معرة النعمان — بين حمص وحلب — سنة ٣٦٣ هـ . ولم تمض ٣ سنوات حتى جدر وكف بصره . تلقى مبادىء العلم على ابيه وغيره في المعرة — فتعلم اللغة والنحو . ثم زار حلب واخذ عن محمد بن عبدالله بن سعد النحوي ، ثم زار مكتبات انطاكية ومر باللاذقية والشام . ورحل الى بغداد سنة ٣٩٨ هـ . واطلع هناك على فلسفة الهنود والفرس وسائر العلوم . وحمل اليه البريد نبأ مرض امه ، فترك بغداد وقصد المعرة ، الا ان والدته توفيت قبل وصوله فجزع عليها جزعا عظيما ، وبعدها لم يبرح منزله ونسك وسمى نفسه «رهين المحبسين» — محبس العمى ومحبس المنزل . واخذ في النظم والتأليف . وبقي في منزله يشرع في التصنيف ، مقتنعا بعشرات من الدنانير في العام ، مكتفيا بالنبات والفاكهة ، مجتنبا اكل اللحم — متعللا بانه فقير وانه يرحمه . وعاش عزبا الى ان مات سنة ٤٤٩ هـ بالمعرة . واوصى ان يكتب على قبره :

هذا جناه ابي علي وما جنيت على احد .

مؤلفاته :

لقد خلف لنا العديد من المؤلفات في الادب والشعر اهمها :

رسالة الغفران :

رسالة فلسفية خيالية ، تقسم موضوعاتها الى قسمين : ادبي لغوي ، ونوادر خيالية عن بعض الزنادقة ومستقلي الافكار وغيرهم . طبعت بمصر سنة ١٩٠٦ .

اللزوميات :

ديوان كبير يقع في ٩٠٠ صفحة طبع بمصر سنة ١٨٩٥ م .

سقط الزند :

ديوان اخر — طبع مرارا .

ضوء السقط :

وهو شرح على سقط الزند وملحق به — طبع بيروت سنة ١٨٨٤ م .

الفصول والغايات :

طبع بمصر سنة ١٩٣٨ م .

كرهه النساء :

لم ينظر الى المرأة كام حنون ولا ربة دار مربية .. بل تطلع اليها بمنظاره الاسود وراح ينقدها حتى اتى عليها جميعا ..

كان يرى ان المرأة مصدر الشر . فابغضها لانها تلد الانسان للشقاء وارتكاب الشرور . وكان يقبح الزواج ويعد النسل جناية ، فيتمنى لو مات الرضيع ساعة ولادته لئلا يتعرض للشقاء والفساد فيقول :

فليت وليدا مات ساعة وضعه
ولم يرتضع من امه النفساء
فليت حواء عقيم ، غدت
لا تلد الناس ولا تحبل

وكان يؤمن بفناء العالم ويرى فناء الدنيا واهلاكها بتعطيل النسل وابادة المواليد ، فيقول في اللزوميات :

كوني الثريا او خضار او
الجوزاء او كالشمس لا تلد
فلتلك اشرف من مؤنثة
تجلت فضاق بنسلها البلد

ويريدها عقيما لن ينتفيها قرينة فيقول :

اذا شئت يوما وصلة بقرينة
فخير نساء العالمين عقيمها

وينكر مبدأ تعدد الزوجات ، فيقول :

وواحدة كفتك فسلا تجاوز
الى اخرى تجيء بالمؤلمات
اذا كنت ذا ثنتين فاغد محاربا
عدوين واحذر من ثلاث ضرائر

ويرى ان اكثر الابناء حقا عقوقا لابائهم هم النجباء الذين يفهمون جريمة الوالدين ، فيقول :

زادك بعدا من بنيك وزادهم
عليك حقودا انهم نجباء

وكان يرى يد السعادة في خلو الدنيا من المرأة ، فلعنها وجعلها سببا لكل شر . وهذا يذكرني بقول علي بن ابي طالب — عليه السلام — : المرأة شر كلها الا انه لا يمكن الاستغناء عنها . بينما استغنى عنها المعري ، لان النساء في نظره حبال غي ومجلبة للعار فيقول :

الا ان النساء حبال غي
بهن يضيع الشرف التليد
اذا بلغ الوليد لديك عشرا
فلا يدخل على الحرم الوليد

ويقول في تائيته :

فوارس فتنة اعلام غي
لقينك بالاساور معلمات
وسام ما اقتنين يحسن اصل
فجئنك بالخضاب موسمات

وينتقد اخلاق النساء ، فلا يرى قيامهن بالصلاة ونسكهن امانا من اقترافهن المآثم اذ يقول :

اذا ما رامت الصلوات خود
فكن البيت افضل مسجديها
وليس عكوفهن على المصلى
امانا من غوارر محرمات

ومن قوله يمنع المرأة الذهاب الى الحج :

أفيتي لا أعد الحج فرضا
على عجز النساء ولا العذارى

فجناية المرأة المآثم ، انما هي باختيارها فيقول :

تقلدت المآثم باختيار
أوانس بالفريد مقلدات

ورأى ان الفتاة اذا طلبت الزواج ولم تجده وارادت الزينة ولم تحصل عليها ، جرها هذان الفاتنان الى مزالق الضلال فيقول :

يردن بعولة ويردن حليا
ويلقين الخطوب ملومات

وجعل لبسهن الاكفان وسكناهن بالقبور خيرا من زينتهن في الكلل وسكناهن في الخدور فقال :

ودفن الغانيات لهن اوفى
من الكلل المنيعة والخدور

وخشي ان يحسب الناس نقده مصبوبا على المرأة المسلمة وحدها ، فاصدر حكمه القاسي على كافة الناس اذ قال :

وساو لديك اتراب النصارى
وعيشا من يهود ومسلمات

وكان يرى ان المرأة لا ينبغي ان تتعلم غير الغزل والنسيج وخدمة المنزل فيقول :

فحسل منازل النسوان اولى
بهن من اليراع مقلمات
علومهن الغزل والنسيج والر
دن وخلوا كتابة وقراءة

وان كان لا بد للنساء من التعليم فيرى ان يأخذن العلم عن شيخ فان ، ابيض اللحيين ، مرتعش اليدين — فيقول :

ليأخذن التلاوة عن عجوز
من اللائي فغرن مهتمات
ولا يدنين من رجل ضرير
يلقنهن آيا محكمات
سوى من كان مرتعشا يداه
ولمته من المتثغمات

والنساء في رأيه متساويات في الشر فليست البكر افضل من الارملة وفي ذلك يقول :

فابكارهن ابكار البلي
وأيمهن كهي الايم

ومن الغريب حقا ان ينصح المعري ويدعو الى تزويج الفتاة حفظا على عفافها ، رغم تنفيره الرجال من الزواج فيقول :

فاطلب لبنتك زوجا كي يراعيها
وخوف ابنك من نسل وتزويج

تحفل لزومياته باقوال كثيرة في النسل والزواج وبغض النساء ، لا تخرج عن نطاق ما تقدم ذكره .

الخلاصة :

كان المعري شاعرا — اشتهر في الفخر والرثاء والوصف والمدح . وكان فيلسوفا — عاش نباتيا واساء الظن بالمرأة وقبح الزواج وتحدث عن وراء القبر . وكان ناقدا — فنقد الادب واللغة والتاريخ والدين والمجتمع .

لقد اوضحت من بعض اشعاره مدى كرهه للمرأة . والواضح ان تمتعه بالنساء كانت عنه بعد رجوعه من العراق وبعد وفاة امه — اي في شيخوخته . ولم يؤثر عنه في شبابه شعر يلم فيه النساء كلمه اياهن في اللزوميات .

— امسك ابو العلاء باخلاق النساء وتقدها نقدا لاذعا — تقدها في طلبها للزواج ، وميلها للنسل ، ووجد انها لا تصلح للحياة الاجتماعية ، فجعل هاجرب على الرجل جنودها الفتنة واعلامها الضلال وسلاحها المعلم هو الاساور .

نقد ابو العلاء المجتمع بنظريته في النسل . وكان يرى ان الفقر والحرمان والشقاوة والمشاكل الاجتماعية التي ادت الى فساد المجتمع — هي الاسباب التي حملته على الجهر برأيه في قطع النسل . رحم الله ذلك العبقري الفذ

المراجع :

١ـ تيمور ، احمد ، ابو العلاء المعري — القاهرة ، ١٩٤٠ — .
٢ـ حسين ، طه ، ذكرى ابي العلاء ط ٣ — القاهرة ، ١٩٣٧ — .
٣ـ زيدان ، جرجي ، تاريخ اداب اللغة العربية — بيروت ، ١٩٦٧ — .
٤ـ الشمالي ، عبده ، دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الاسلامية واثار رجالها
٥ـ عبود ، مارون ، ادب العرب — بيروت ، ١٩٦٨ — .
٦ـ العلايلي ، عبد الله ، المعري ذلك المجهول — بيروت ، ١٩٤٤ — .
٧ـ الفاخوري ، حنا ، تاريخ الادب العربي ط ٦ — بيروت ، لبنان — .
٨ـ الاسكندري أحمد ، وعناني مصطفى الوسيط في الادب العربي وتاريخه ط ١٧ — القاهرة ، ١٩١٦ —
٩ـ المحاسني ، ابو العلاء ناقد المجتمع — بيروت ، ١٩٦٣ — .
١٠ـ اليازجي ، كمال جولة في لزوميات المعري — بيروت ، ١٩٤٢ — .

صخب وهدوء

نبير شوحيط

بعيد عن المدينة الصاخبة حملت نفسي أنشد الوحدة والهدوء .

لقد ضقت ذرعا بالدوي والصخب والاكتظاظ ، فرحت الى الابعاد طائفا في الربى والبقاع تائها بين الصنوبر والسنديان لااسمع الا حفيف الشجر ورفيف الريح .

في خلوة كهذه طفقت النفس تعي كيانها وتتجاوب باصدائها ، فاخذها من هذه الوحشة شيء من الهول بان العالم رهيب عميق جليل ، اذا كان العالم في زوايا المدينة صغيرا ضيقا ، وهنا .. هنا في مراتع الطبيعة الخلابة تسمو النفس فتشعر بعظمة الجمال وروعة الوجود

غير ان هذا الانفعال ايقظ النفس التي نشدت الراحة ورامت الهدوء ، فاخذت العين تنظر ولكنها لم تر الا أعماق النفس الزاخرة .

فاخذت أحدث نفسي واناقشها ، وأسائل الفكر واشاكله ، فانجرفت بتيار كاسح من الخواطر والهواجس

فراوغت النفس ذاتها والتفت كالتفاف الافعى ، وعلت أسوأ الذكريات وأعسر الافكار فتعكرت هذه الخلوة الهادئة بجلبة النفس .

فأين المفر ؟

لقد فررت من المدينة لالقى الراحة هنا .. فكيف الفرار من النفس ؟

فاعود الى المدينة ..

أين أجد السكينة والهدوء؟ الى المدينة اعود باحثا عن الهدوء ..

لتهدأ هذه النفس من لجبها وهديرها !

الشرق　　　　الشرق

اقرأوا في العدد (٨ — ١٠) من مجلة

"الشرق"

يورام كنيوك : حياة كلارا شياطو الحلوة (قصة)
نبيل فرج : عن قمر شيراز للبياتي
موسى العبيدي : كتاب البحر للبياتي
عبد الوهاب البياتي : قراءة في كتاب الطواسين للحلاج (قصيدة)
فؤاد رفقة : بلا حدود انحني يا لاذن — (قصيدة)
د. دافيد صيمح : داء العشق في ادب الحب عند العرب (دراسة)
سلفان بيمبا : الغرفة المظلمة (قصة)
سان جون بيرس : صداقة الامير (قصيدة)
اسحاق بار موشيه : مكتب الاستاذ انور (قصة)
البروفيسور شموئيل موريه : اهرون أمير الشاعر العبري
نزيه خير : هل أصبحنا بحاجة الى بوليس ادب
محمد عفيفي مطر : بركة الاقامة بين السماء والارض (قصيدة)
انطون شماس : جمال جمالك (قصيدة)
عزيز نيسين : زوجتي على حق (قصة تركية)
سوانك برو : شاي باللباس المغري (قصة انجليزية)
د. اسعد خير الله : عن فؤاد رفقة
جميل ارشيد : ما بعد التجاوز (قصيدة)
محمد شفيق شيا : مدخل الى نعمة الفيلسوف
محمد حمزة غنايم : قلب لزرقاء اليمامة .
وتوصيات لكتب جديدة ، لاتويس ومحمد علي ابو ربا ومحمد حمزة غنايم وعبد الله عيشان . المشاركون محمد حمزة غنايم وحسن قليشة وميشيل حداد ومحمد حبيب الله .
فصول من كتاب كاء تستتيك — كوكب الرماد

الدولفين والقبطان

جورج طربيه

يا بحر يا نبيذ
يا حامي اللذيذ
خذني مدى الدهور
على مرايا النور
فانني زمردة
في صدفة مجمدة
تعافها الصخور

●

... اذا القوام ماج
في بزة الزهر
اخاله الامواج
لفت على الصخر
او دمعة من ادمع القطر
سالت على الزجاج

... غدا سآتي حاملا حقيبتي
مملوءة مطر
انا الوحيد في صقيع الثلج والبشر
وليس لي في الارض ما يدفئني

... اليك يا حبيبتي
اقلعت في قصائدي اقاوم الاقدار
ولم تزل عيناك في انتظاري
هناك ... عند اخر البحار
ذهبت في الرياح والظلام
تحملني سفينة الايام
سفينة الحلم التي بدا حقيقة خالقة
منسوجة من اشرس الاحلام
ابحرت حين احجم البحارة
وادركوا ها اليعر
ولم اخف امواجه الغدارة
ولا جنون الدهر
... وانني اعاكس الرياح
ممزق الشراع
محطم الجناح

●

... جاحظة عيونهم
وليس يبصرون
مفتوحة افواههم
وليس يصرخون
على المدى تجمعوا
هنا يد ، هنا يد
هنا أكف اومأت اليك بالسكون
كأنما تقول بعد اليوم ...
لن تكون
فيا لها اشارة مدمرة
تكسر الوجود لو تريد
اشارة الخلائق العبرة
اليك من بحرة الجليد (...)

الاديب حبيب مسعود

من ابرز ادباء المهجر الجنوبي

بقلم : شاكر فريد حسن — مصمص

حين نتحدث عن حبيب مسعود من العصبة الاندلسية فنحن نتحدث عن واحد من ابرز ادباء المهجر الجنوبي ينظر اليه كل اديب مهجري بعين التجلة والاحترام . فهو رئيس تحرير « العصبة » سابقا ، وهو الخطاط الوحيد ذو الشهرة العريضة في المهجر ، وهو ممثل صحافة المهجر الجنوبي في مؤتمر اليونيسكو في بيروت عام ١٩٤٩ ، وهو صاحب كتاب يا لبنان . وفي هذه الهويات العديدة ما يكفي للتعريف بهذا الاديب المهجري الكبير البعيد عن بهرجة الدعاية لنفسه وادبه ، والذي يحترمه جميع اصدقائه وعارفيه في المهجر لادبه ولخلقه العالي ، وترفعه عن المتاجرة بادبه في سبيل الربح المادي ، او الجاه

ولد الاديب حبيب مسعود سنة ١٨٩٩ في «بشري» الضيعة اللبنانية الجميلة ، التي خرج منها الى العالم جبران خليل جبران ، وتلقى تعليمه الابتدائي في مدرسة الضيعة ، ثم انتقل الى مدرسة الحكمة في العاصمة اللبنانية — بيروت — . وفي سنة ١٩١٢ هاجر الى البرازيل وراح يتقلب على اكف الجهاد في سبيل الرزق ، وفي سبيل الادب معا فعمل في التجارة ، وفي تحرير الصحف . وكان دائما عربيا في عاطفته وايمانه ، وعربيا في قلمه وبيانه ، ويخدم الفصحى ما وسعه الجهد والطاقة .

ولقد انضم الى العصبة الاندلسية منذ فجر حياتها ، وكان رأس تحرير مجلتها « العصبة » منذ ولادتها وقبل « العصبة » كانت الصحافة وسيلة للارتزاق والمتاجرة . فجاءت العصبة تخدم الادب والفكر مجردين عن الغرض المادي ، مترفعة عن المهاترة والتبذل ، سامية عن الاعتبارات الشخصية وكان لحبيب مسعود في هذا اكبر الاثر واحسنه . وكانت افتتاحيته لها ومقالاته فيها نماذج من البيان العربي القويم المشرق ، ومن التفكير الادبي والانساني والقومي الراقي ، مما اكسب حبيبا مودة رفاقه ، ورجال الفكر والادب في المهجر ، واحترامهم ، ثم توقفت العصبة بضعة اعوام . وانقطع حبيب عن الصحافة الى التجارة سنوات ثم عاد اليها رئيس تحرير لمجلة « المراحل » الادبية الراقية . وقد اكتسبت به « المراحل » قوة جديدة وشخصية ادبية محببة الى القراء .

وفي عام ١٩٣١ ، وبعد وفاة جبران ، عمد حبيب مسعود الى اثار جبران الادبية المطبوعة بالعربية فجمع منها شيئا كثيرا ، واضاف اليها مقدمة عن حياة جبران ، وفصولا اخرى عن عودة جثمانه الى الوطن واستقبال اللبنانيين له ومراثي الادباء والشعراء له . وطبع كل ذلك في كتاب ضخم بنحو اربعمئة صفحة ، بمعاونة نسيبه شبل مسعود . واسماه « جبران حيا وميتا » وفي منتصف شهر تشرين الثاني من عام ١٩٤٨ ، تلقى حبيب مسعود من القنصل اللبناني دعوة لتمثيل صحافة المهجر الجنوبي في مؤتمر اليونيسكو في بيروت . فاستجاب للدعوة ، وعاد الى الوطن يحثه الحنين والفرحة بهذه الفرصة الثمينة تتيح له رؤية الاهل والوطن بعد غياب طويل . وكانت هذه الاقامة — وقد امتدت اقامته في لبنان كاملة ، من تشرين الثاني ٤٨ تشرين الثاني ١٩٤٩ — وسيلة لوضع كتاب يدون فيه حبيب خواطره وانطباعاته عن الوطن وما يراه فيه من ضروب الحياة . الناس ، واصناف العيش . و... الناس وافكارهم ومشاغل حيا ولتصوير ربوع لبنان الجميل يراها ويحسها ذلك الكتاب اجملك يا لبنان ، الذي صدر عن منشورات العصبة عام ١٩٥٢ في (٢٥٠) صفحة من القطع

وبعد فان حبيب مسعود يتميز بين ادباء المهجر جميعا بانه يجمع اشراق البيان العربي وتصاعته ، التفكير واجابته . وطيبة النفس وسماحته . اناقة الخط وجماله كانت جميع العناوين في مجلة ... — للمقالات والقصائد وغيرها بخطه الجميل ، وكذلك كانت جميع الاناشيد مطولة « عبقر » لشفيق معلوف — محفورة بخطه ايضا ، بعناوينها وابياتها كلها .

والخط الجميل دليل على سمو ولطفه ، وعلى رهافة الاحساس و...

ملاحظات حول كتاب "وجه الطفل العابس" للشاعر معين حاطوم

"السعادة المفقودة" والصراع الدائر حولها بين الروح والمادة

معين حاطوم

بقلم : فايز الكردي ـ عكا

...ت ازور بعض الاصدقاء في دالية الكرمل • وهناك التقيت ...ديق «معين حاطوم» • واثناء الحديث سمعت منه لاول ...عن مشروعه لاصدار كتاب جديد •

...ما حمل الى البريد نسخة من «السيمفسردية» لم افاجأ بل الصحيح القول باني كنت انتظر متلهفا • لذا تناولت ...ب واردت تصفحه فوقعت عيني على الاراء التقييميـــة ...عة على الغلاف (والتي سأعود اليها فيما بعد) فعجبـــت ...ت فضولا وشوقا لمعرفة المضمون ورحت اقرأ •

اعترف باني لم افهم مما قرأت شيئا • فتركته وانا التمس ...ى الاعذار واقول مبررا • لعلك مشرد الـــفكر الان لا ...رعب ما تقرأ • فدعك منه وعد اليه فيما بعد •

...عدت اليه بعد حين • واقبلت على قراءته ثانية • لكن حالي ...كن بأحسن من المرة السابقة • اذ وجدتني مرغما على السير • وتحسس طريقي وسط متاهات فكر فلسفية وصوفية ...لى معقدة •

...ر اني بعد طول المطالعة ومعاودة القراءة لم البث ان ...ا وصرت إستجلي دربي وسط الكلمات والرموز والافكار ...ل قراءة جديدة للكتاب •

...ا • وانطلاقا من تجربتي • فان ما سيواجه القارىء ...مفسردية هو التعقيد الفلسفي والرمز المبهم والايماء ...د الذي يتطلب اعمال الفكر بل اجهاده لفهم مضمون ...ب •

لعلك تتساءل مستغربا ـ وما الدافع لهذا التعقيد ؟ • ...ول اصحاب هذا الفن دفاعا عنه • بأن تعقد الشعر ...يث يرجع في اساسه الى تعقد الانسان العصرى نفسه • الشعر انما هو انعكاس لقضايا هذا الانسان وتموجات ...ه ومشاعره • وما دامت الحياة معقدة بكافة مظاهرها ...رابة ان يكون الشعر وهو الاداة المعبرة عن هذه المظاهر ...تية معقدا ايضا •

...ن وقبولا بهذا التعقيد مرغمين عملا بالقول المأثور «مكره لا بطل» • تعال بنا قارئي العزيز نسير سوية في الدرب رسمه لنا شاعرنا «معين» محاولين قدر المستطاع فهم ...ه وتتبع ايحاءاته •

حتى لا نضيع الطريق لنبدأ اولا في استكشاف المعاناة ...ة لديه وتحديد ابعادها الفكرية • من حيث انها ظاهرة ...ية لعمق فكرى خلقى هو في الاساس منطلق الشاعر • ...مان مفكر يعبر عن معاناته بالصورة والرمز والاشارة •

...لا حاجة بنا الى البحث الطويل • لان الشاعر نفسه يوفر ...ا هذا العناء حين يحدد موضوع معاناته في صفحة «٩» انها الصراع بين الروح والمادة ومن هذا التحديد بالذات ...سب اهميتها لدينا • لان المتتبع لحركتنا الشعرية في هذه ...د يلاحظ ندرة او قلة الدواوين التي ترتفع في ادبنـــا ...ى الى مستوى المعاناة الفلسفية • ومناخات التحســـ...سوية الوجود الانساني •

انطلاقا من هذا المفهوم • فان من يطالع الكتاب بتريث ...مان يجد نفسه امام اغراض متعددة • قصدها الشاعر ...اكتابه • وسنتحدث عن معظمها بأسهاب • على ان اهمها ...ريب يدور حول الملحمة الكبرى للوجود الانساني وهي ...معادة المفقودة» والصراع الدائر حولها بين الروح والمادة ...ي يصف لنا ذلك في اسلوب رشيق وحوار جميل بـين ...دى» الصوفي وبين «همسة» المعنى العبثي للسعادة • ...ل في صفحة ١٦ ـ

وكانت البداية
شاب • طفولة وجهه عابسة
في عينيه شوق مجنون
وحنان متمرد
يرنو صاغيا الى صوت انثوى اوبريتي يناديه من على
روابي الحياة ومنخفضاتها •••• يناديه •••
شادي
شادي
ينثني الشوق في عينيه ويميل

يقول في صفحة ١٧ ـ

همسة ـ انت التي ابحث عنك
بين ثنايا الايام
بين مجاهل الاعوام
لك السلام ••• لك السلام
...ك الطفولة ••• لك الحنان

...د هذا الشوق المتبادل يصف لنا عبثية الوصول الـــى ...عادة المنشودة فيقول في صفحة ١٩ـ٢٠

ترفع ذراعيها
تغمض عينيها
وتنتظر حنان انامله
يستمر هو في السير على امل الوصول
لكن الافق الذي تتراقص عليه همسة لا يطال
انه بعيد ••• بعيد
في قبضة المحال

...الى ان معاناة الشاعر المتمركزة حول الصراع بين الروح ...ة كما اسلفنا • لا تقف عند هذا الحد • بل تتحول تجربته فيها الى معاناة الحزن والالم ايضا حتى يصبح غرضا معبرا لديه • واستمع معي الى هذا النواح المأساوى فـي صفحة ٦٨ ـ

انا
استعارني الالم
فندقا فيه اشهى المحاشي

ويقول في صفحة ٨٨ ـ

همسة ـ
نصبت عناكب الايام
في قلبي شباك الالام
وقلبي ليس واديا
يصطاد به الذباب

ويمضي في معاناته الحزينة هذه الى ان يقع فريسة الشعور بالانسحاق والضياع ـ واستمع اليه يتأوه في صفحة ١٣ ويقول ـ

فنحن موجودان لان الكوكب تائه بنا في مجاهل مجهولة
وسنضيع •••• سنضيع •••••

ويقول في صفحة ١٥ ـ

وظلت هي في رحيل دائم
ظلت صوتا موسقا يدعوه
وظلت عيناه في انفجار دائم
وهو يصارع غبار الضياع

بعد هذا السير في درب الاحزان والالام يصبح من المحتم على شاعرنا ان ينعطف ليسير في طريق اكثر وعورة يستسلم فيها الى اخطبوطية ذاتية تنسجم تماما مع نظرية الاغتراب الفلسفية • التي نشير الى انسلاب الانسان عن جوهـــره وتغربه عن ذاته • واستمع الى هذه الابيات من صفحة ٢٣ ـ

فالغربة خنجر
الغربة جيفة
الغربة نهر
الغربة عذاب
انتحار
قهر
سهر
قدر
قدم
داسني •••• لماذا انا النملة ؟

ويقول ايضا في صفحة ٢٧ ـ

ونفثت غيمة حبلى
بآلام ضجر الغربة
كبرت الغيمة ••• كبرت ••• كبرت
فأولدت عذابه طفلة
كبرت الغيمة •••• كبرت الغربة كبرت
صارت الطفلة مراهقة شرسة
تفهم معنى الكاس
معنى السهرة
صارت المراهقة حسناء
تتقن الدعارة والزنى

ولا يسع المرء وهو يقرأ هذا النواح الحزيـن الا ان يعجب ويتساءل عن سبب هذا الحزن الشديد والضياع والانسحاق - اهو تقليد لشعراء الغرب ومحاكاتهم واستعارة الاحساس بالضياع والعبث المطلق في الوجود منهم ؟

ربما • واذا كان كذلك فهل يجوز لشعرائنا تجاهل الفارق العظيم بين ظروفنا وظروفهم وقضايانا وقضاياهم •

لماذا يقدم شاعر شاب مثل «معين» على قول مثل هــذه الابيات من صفحة ٤٥ ـ

فاضت انهر وبحار هذه الدنيا الكئيبة
حملت معها الدنيا واشياؤها الكئيبة
جرفتني انهر وبحار هذه الدنيا الكئيبة
كباقي الاشياء الكئيبة

افهم ان يقف شاعر غربي مثل هذا الموقف البائس اليائس وهو يرى حضارته ذات المكاسب العلمية والتكنولوجية الرائعة وهي تتهاوى تحت وطأة الجنس والمخدرات وتسير سيرا حثيثا نحو التدهور في طريق الانهيار والتلاشي (غرقت هـــي واشياؤها الكئيبة) •

اما الشاعر الشرقي عموما والعربي خاصة • فيجب فـي اعتقادي ان يتخذ له موقفا اخر لانه بالقطع يمثل قضايا مختلفة تتطلع الى المستقبل بتفاؤل وثقة •

ولقد سجل «معين» نفسه هذا التفاؤل وعبر عنه سواء عن وعى او دون وعى منه حين هتف مبشرا في صفحة ٥١ ـ

فلم يبق من الليل
الا اذياله

وفي صفحة ٨٦ حيث قال ـ

تقبل نسمة
تدبر ومضة
يولى غروب
يقبل صباح
تقبل نسمة
تختفي برقة
ياتي نهار
يذهب ليل

فلنتركه اذا مع احلى ساعات الامل والتفاؤل يشدو ويقول في صفحة ٩٧ ـ

تنمو طحالب الامل في قفر عينيه فجاة
وتنفث الحياة من بين شفتيه
عطر الياسمين

لنتركه على هذه الصورة المشرقة المتفائلة ولننتقـــل الى موضوع اخر لا يقل اهمية وهو «الانسان» •

كيف يعبر الشاعر عن نظرته الى الانسان ؟ •

ان النظرة المأسوية للحياة لا تترك الشاعر اثناء حديثه عن الانسان سر الحياة واستمع اليه كيف يصور الانسان فـى صفحة ٥٨ ـ

تصورت جرثومة
بأنها حامل بجنين انسان
فترنحت قرفا

ويقول في صفحة ٦٠ ـ

افترضت جرثومة
انها انجبت انسانا
ففزعت
فزعت
حتى خارت وسقطت

واذا تساءلت عن سبب هذه النظرة المتشائمـــة الى الانسان • يجيبك عن السبب في صفحة ٧٠ حيث يقول ـ

ذبح الانسان عشرين طفلا
ذبح الانسان الاف الاطفال
واباد قطيعا من الحيوانات
لا •• الاف القطعان
اسمعت عن طفل او حيوان ذبح عشرين رجلا ؟ •

بقي علينا ان نسمع رأيه في الحب وفي قضايا الجنس • ان الشاعر التائه الذى وقع فريسة الضياع والانسحاق • ما انفك يبحث عن ضوء هاد يريه الطريق وسط الظلام الحالك المحيط به من كل جانب •• وقد يلمح مثل هــذا الضوء البادى في عيني حبيبة • فيتغزل • لكن غزله يتخذ مغزى رمزيا خاصا ابعد بكثير مما يبدو في الظاهر • استمع معي الى هذه الابيات من صفحة ٤٩ ـ

فهمسة في كل مكان
في البحر
في الظلام
في النور
في البر
في الكلمة ••• في الصوت
في الانغام
في الفصول
في الانسان

وتأمل هذه المعاني من صفحة ٩١ ـ

همسة
هذه الحياة قصبة ذابلة
يحيلها وجودك
الى شبابة عاشقة
ننفث بها اعذب الالحان

واستمع ايضا الى هذه الابيات

تعالى
اشعلي لهذا الليل الحزين
قنديل الضياء
تعالى
ازرعي قلب هذا العالم اللئيم
بسنابل الحب والحنين

وهناك صور من الغزل الجنسى الرقيق جميلة التعبير • فيها متعة خصوصا اذا قرأناها كما هي دون التعمق فيما تحمل من خلفية او تهدف اليه من معان •

واستمع الى هذه المناجاة المنتهية بالعواطف المشحونـــة بالاغراء والاغواء ـ

انا عذراء منسية
في ذاكرة الحب العصرية
فاذكرني حتى اصرخ

صفحة ٦٠

اصهر جسدى العانس
بنار راحتيك
انت طل
وانا وردة
والوردة لا يرويها الا الطل

صفحة ٥٩

وضمني الى صدرك
فاني ابغي احتضار انفاسى
بين يديك

صفحة ٢٣

ويستجيب للاغراء فيتمتم بحنان وشوق ـ

شفتاك دافئتان •••

فترد عليه بتنمر واشتياق قاتل ـ

وشفتاك نسران شرسان ••

وهناك ظاهرة يلمسها القارىء خلال مطالعاته للكتاب • وهذه الظاهرة هي رغبة الشاعر في التمرد • فهو يصرخ في صفحة ٥٤ ـ

لا يولد فردوس
الا اذا انسابت في اعصابى النار

ويقول في صفحة ٥٢ ـ

لكن
لن يصمت اعصارى
لن ينام

غير ان تمرده هذا لا يتعدى التطلع نحو التغيير • ـ

افسح صدرك افسحه
اطلق منه الغيبيات

فهو يعاني المشكلة كما يبدو معاناة مبهمة مع انه يعيش في اجوائها • لذا فهو يعمد الى تحويل افكاره الى لوحات من الصور والرموز والمعادلات التشبيهية التي توحـــى بمعانيها وترمى اليها بأشكال فنية وجمالية متنوعه كما سبق وقدمنا •

هذه الظاهرة تسوقنا الى طرح سؤال هام وهو ـ

هل يجوز ان يتحول الشعر الحديث الى الغاز واحاجـــي وكشوف صوفية في عصرنا هذا • عصر العقل والعلـــم والحضارة التكنولوجية ؟ •

تأمل هذه «الابيات» من صفحة ٦٤ وانا اتحداك ان تفهمها• واعترف باني شخصيا حاولت وفشلت ـ

فلماذا انت يا عالم
احلام
احلام
ا ح ا ح
لا لا
م م م م م م
لماذا ••••••••• لما
ذا ••••••••••• ؟
•••••• انا ••••••
•••• لا •••• لا ••••
يا •••• ر •••• بى ••••

اراك تبتسم وعلامات الحيرة تبدو على وجهك • ومعك حق • لان من اولى مهام الشاعر الملهم تسليـط الاضواء وتوضيح بل تعرية رموز هذا العالم المبهمة • وهو ما لم يفعله صديقنا معين او يعمل به •

من الامور المسلم بها ان وراء كل شعر انسان يحـــس ويفكر • وهو يجيد التعبير عن افكاره واحاسيسه • والشاعر الكبير هو دون ريب الانسان الكبير بأحاسيسه وافـكاره باعتبار الفكر وعيا للحياة والوجود •

من هنا • فاننا نطرح السؤال الاخير في هذه الملاحظات وهو ـ

ما هي حقيقة المعاناة الانسانية البارزة في الكتاب ؟ • ما هي هويتها وما هو مدى ارتباطها بحركة الفكر المنبثق عن الحياة ؟ •

هل تمكن الشاعر او «السيمفوسارده» ان شئت في تجربته المبتكرة هذه «وجه الطفل العابس» من التعبير عن القضايا الذاتية لمجتمعه وعن آمال الجيل العربي الصاعد (والذى يمثله الشاعر الشاب) فى هذه البلاد • وعن تطلعاته نحـو المستقبل ؟ •

ان ضيق المجال لا يتيح لنا الرد على مثل هذه الاسئلة والتساؤلات لذلك فاننا نترك للقارىء المستنير ليحكيهـــا بنفسه ويحكم على اصالتها واتساع افاقها • ومدى حجمها الحقيقى ومركزها واتصالها بالحياة •

وقبل ان اختتم هذه الكلمة اود التعرض وباختصـــار شديد لكلمات السادة الذين ابدوا آراء تقييمية للكتاب وعلى رأسهم البروفيسور «شموئيل موريه» الذى منح صديقنا «معين» حق تبوء مكان الصدارة في عالم الشعر العربى فـــي اسرائيل • بل ووضعه في مصاف كبار الشعراء في اسرائيل والعالم العربى معا •

كيف ••• ولماذا ••؟ • لان «السيمفسردية» ثورة فـــي عالم الشعر العربى الحديث وتجربة فريدة في لعبة الشكل والمضمون معا كما يقول •

ولعلني لا اتجاوز حدى اذا اعترضت على هذا الـــرأى او ساورتني الشكوك بأنه ربما كان رأيا متسرعا يمكن تصنيفه تحت اطار «لكل عالم هفوة» •

اما ان الكتاب تجربة فريدة فهذه نعم • وهو بلا ريب يمثل خطوة جريئة وشجاعة لصديقنا «معين» •

واما انه ثورة في عالم الشعر العربى الحديث • فهذه لا يا سيدى البروفيسور •

ان صياغة الكتاب الاسلوبية التي تقف في حد وسط بين الكشف النثرى المباشر وبين الكشف الشعرى بالصـــورة والرمز والايحاء • او كما يقول الصديق الشاعر «نزيه خير» محاولة جديدة قد ينطبق عليها منهج الشعر المنثور او النثر الشعرى •

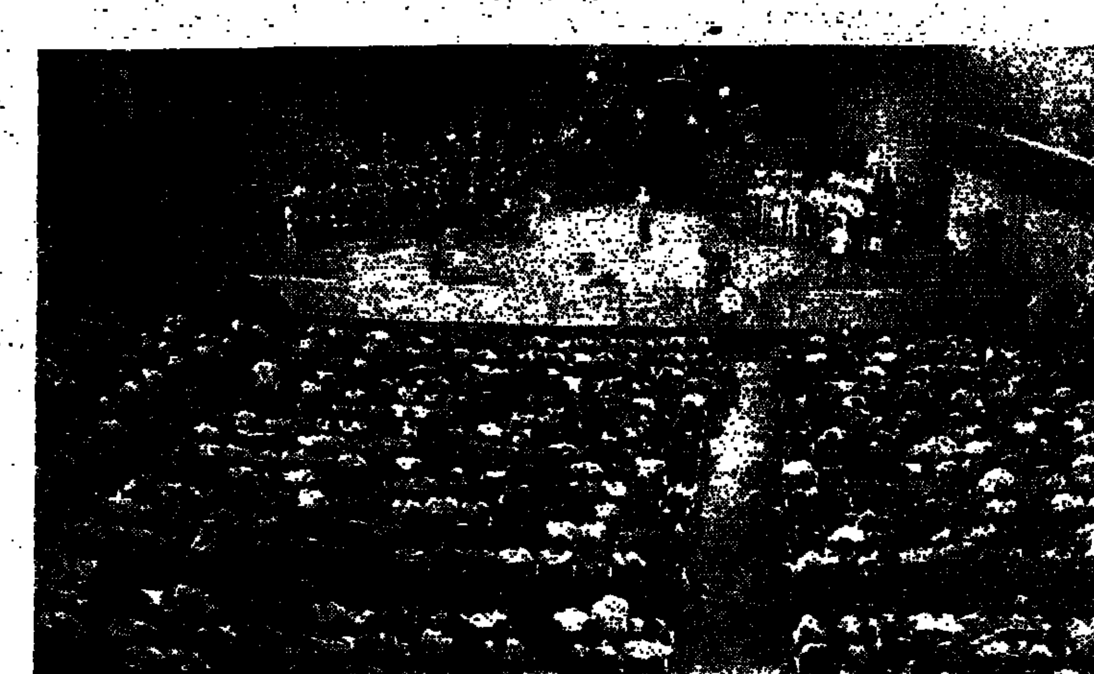
ان مثل هذه الصياغة التي ينطبق عليها قول ابن الرومى ـ

يسهل القول انها احسن الاشياء
طـــرا ويصـــعب التحديـــد

ليست هي المؤهلات اللازمة لاحداث الثورة في عالم الشعر العربى الحديث •

ومهما يكن من امر • ومهما اختلفت الاراء والاجتهادات في «السيمفسردية» فاننا نهنىء الصديق معين حاطوم عـــلى مجهوده الكبير وجرأته وشجاعته • ونرجو ان يستمر فـــي العطاء الخير والابتكار الرائد •





مهرجان الغناء العربي الى اين ..

بقلم : احمد حسن الاسدي — دير الاسد

لابد لي من كلمة حول ذلك خاصة بعد أن قرأت من على صفحات جريدة الانباء الصادرة في ٧٥/٩/٥ وفي ملحقها الادبي عن مهرجان الغناء العربي. وقد سررت جدا حينما وجدت نفسي أمام صفحة كاملة عنوانها المهرجان .

دخلت الصفحة من أولها حتى خرجت من اخر كلمة بها ، وجدت



يوسف مطر

نفسي امام آراء عدة وفي نفس الوقت وجدت انه علي بان أبدي رأيي في ذلك ، وأقولها بشدة ، رأيي الذي قد يكون الصواب في جميع أو معظم

تصري القط ... جائزة تقديرية .

الاحوال ، وحول جوانب المهرجان جميعها الفنية منها والادبية والمنطقية كذلك أبدأ أولا بالرأس ، السيد زوزو موسى حين أبدى رأيه بالاغنية المحلية قائلا بأنها على مستوى الاغنية العربية في الاقطار المجاورة ... حبذا لو أن الفرصة تسمح لي بلقاء مع السيد زوزو موسى لكي أعارض رأيه وجها لوجه ، وذلك انطلاقا من "أن الثقة بالنفس شيء جميل ولكن لحدود ، علينا ان نثق بالاغنية المحلية ولكن ليس كل الثقة ، خاصة في هذا الوقت الذي لا يزال الفن المحلي فيه وبشكل عام يحبو على يديه ورجليه كالطفل ابن الاشهر ، فالمستوى الفني ليس الاغنية فقط ، بل الاغنية واللحن والمطرب ، فالمطرب هو الناطق الرسمي بلسان الفن ويشاطره في ذلك الملحن ، وهؤلاء الناطقون لا يزالون في شيء من عدم التركيز الفني لتحمل مسؤولية النطق بلسان الفن، وللتأكد من ذلك لو أمسكنا بالجريدة لنقرأ اجوبة المطربين على الثلاثة اسئلة التي وجهت لهم حول الاغنية التي سوف تفوز لوجدنا تناقضا بعيد المدى في ارائهم حول ذلك ، وأعلل ذلك بعدم وجود بؤرة تحكم على جميع المطربين التوجه اليها أو على الاقل أن يتوجه أكثرهم اليها أو حولها ، وربما كان ذلك ناتجا عن أنانية في نفس كل واحد منهم أو عدم خبرة فنية أو ميل ذاتي لمطرب ما ، وكل هذه الاحتمالات لا تليق بالمطرب ، وأقول ذلك بوجه عام بعد استثناء المطربة سلمى (ذات الصوت الدافيء) التي تكهنت وكادت تصيب حيث أدرجت الاغاني للفوز كالاتي :

١ — علي موسى
٢ — يوسف مطر
٣ — سلمى

اما النتائج فكانت :

١ — علي موسى
٢ — سلمى
٣ — يوسف مطر ، هذا مع أن جميع المطربين والمطربات يعرفون انفسهم تماما، ولم هذه التناقضات ؟! لست أدري ...

هذا بالنسبة لآراء المطربين ، وآراء المطربين انفسهم .. اما الجمهور فلقد كانت له عدة اراء تواجهـــــــه بوجه عام قد اصابت وبعضها الاخر قد اخطأ ، فمثلا هنالك راي لتيسير شحاده محاميد من ام الفحم وذلك حول عدم اشتراك بعض المطربين الاكثر نضوجا وصلابة فنية وكذلك حول ان الحكم على الاغنيات الفائزة لم يصدر وفقا لمستوى الاغنية الفني بل لظروف خاصة معينة ، وهذا في رايي قد يكون صوابا . وراي اخر لعامر زعبي من الناصرة حول طريقة الاقتراع حيث كان للفوضى نصيبها في تقرير الاغنية الفائزة ، واضاف بان هذه الطريقة مرفوضة وخاصة اذا كانت لجنة تحكيم على مستوى ادبي وفني عال ..

وراي اخر لصالح عباسي اذكر منه قسمه الاخير الذي يذكر بوجود اغان لا تتسم بطابعنا المحلي ، وحول ذلك — اي حول الاغنية بشكل عام — أود اعطاء رأيي حول كلمات الاغاني التي اشتركت وحبذا لو أن اللجنة قد اشرفت على تقرير الاغنية المشتركة قبل التلحين لكي يتسنى لها فحص المستوى الادبي للاغنية ، فهنالك اغان لا تصلح حتى للصفوف الدنيا في المدارس الابتدائية، وبعضها ذو مستوى عال فالاغنية الاولى التي غناها علي موسى — جوكي الخطار — ولا اعلم من هو كاتب كلماتها — هذه الاغنية التي فازت بالمرتبة الاولى ... ولا احب الدخول الى نطاق من التساؤل اذا كان علي موسى يستحق الجائزة الاولى أم لا ، فالاغنية من حيث الكلمات ليست على مستوى رفيع يستحق ثناءا عاليا يوصلها الى المرتبة الاولى — هذا اذا ما قيست مع باقي الاغنيات من ناحية مستوى الكلمات . وفي هذه الاغنية بالذات، نجد بعض التعابير التي تشير الى مناظر ليست من مستوحيات العصر فمثلا :

اصطف الخيل قبال الخيل
وعلا صوت الربابـة
واعمامي وخوالي سيل
والليلة كتب كتابي



علي موسى صاحب الجائزة الاولى

مناظر الخيل قد تكون قديمة ، انني اذكر اذ كنت صغيرا الخيول في الافراح ، واليوم انتهت كل هذه . واسأل حول كلمة سيل ، ما الذي اوردها في صدر هذا البيت ؟

وما معنى ان الاعمام والاخوال سيل ؟

وما معنى ذلك : هلت عليك زلامي هيل ؟ ما المعنى الذي ينتظره كاتب الكلمات من وراء هذه الجمل ؟

وبعد ذلك وقبل الموال يقول :
« قرب من عمرك عشرين
وعمرك في هوايا قمرين » . هذه النهاية تحكم على الملحن اقفال اللحن تحضيرا للموال والا ... سيفشل ، وهنا تكون الاغنية قد وقعت في شيء من الفشل — ان لم تسلك السلك الذي عينه الكاتب . وهذا نوع من الضعف ، فالاغنية يجب ان تكون كلماتها لينة مرنة تطيع اللحن، تطيع النغم كيفما يشاء وفي اغنية — جوكي الخطار — قد وفق الملحن ربما بالصدفة . ومع كل هذا اتمنى له التقدم. اما بالنسبة للاغنية الثانية:

(راكبه باص صغير) — غناء فلورا زكي : ما هو المعنى الذي استنتجه من هذه الكلمات ؟ قف مع نفسك قليلا وستجد الجواب .

الاغنية رقم ٣ ليالي الفرح — غناء صالح الشلبي : كلمات هذه الاغنية تكرر نفسها اكثر من اللازم مع أن البداية كانت ممتازة جدا :
حلوه ليالي الفرح حلوه اغانينا
واحلى ليالي العمر صارت لياليتا

وبعد ذلك ينتقل الى (طاحونه الكلمات المتشابهة) ان صح التعبير حيث يقول :

اوصفك بالنجم ، وشبهك بالقمر
اوصفك بالورد ، وشبهك بالعطر ،
اوصفك بالنغم ، وشبهك بالسمر ،
اوصفك بالقمر .. الخ حتى نهاية الاغنية ، تكرار لا يعطي للسامع اي نوع من الانسجام . بل كلمات تكرر نفسها أكثر من اللازم وتشبيهات يسمعها السامع وينساها فورا ، حيث انها لا تعلق بالذهن لضعفها اللغوي وعدم تداخل كلماتها ببعضها تداخلا فنيا حسن الوقع على الاذن .

الاغنية رقم (٤) — غناء سمير ياسين — كلماتها لا باس . ولكن كان على المؤلف ان يطور اكثر وان يحاول التخلص من كثرة الكلمات والتعابير العامية .

الاغنية رقم (٥) — غناء هيلي — حبذا لو راجع المؤلف كلماتها قبل التلحين .

الاغنية رقم (٦) — غناء يوسف مطر — كلماتها لا باس . اذ يقول في مقدمتها :

وردة خدك خليها
غنوة لتفاح الغابات
ضحكة عينك خبيها
همسة توديها الزرعات

ويقول :

لملمت من الماضي شموع
والشمس الساحرة بتغيب
عالزهر الذبلان دموع
ترزلها شوق الحبيب
على رمل الشط بأيار
انا وانتي وقمر خجلان
غنينا للحب اشعار
وسمعنا احلى الالحان

لقد اشرك المؤلف في هذه الاغنية جميع العناصر الهامة : الانسان ، الطبيعة والجمال ، الحب والغزل ، هذا بالاضافة الى صوت المطرب يوسف مطر وادائه الغنائي ولحن الاغنية .. هذه اشياء تحكم على الاغنية بأن تتسم بطابع هادئ وجميل وناجح في نفس الوقت .

الاغنية رقم (٧) — غناء ناديا — لو راجع المؤلف كلماتها لكان افضل.

الاغنية رقم (٨) — غناء مترى بولس — كلماتها روتينية وذات طابع قديم . عاد المحبوب ورجع المحبوب هلو القرايب ودقوا عالباب . لاقي الشباب ورقص الشباب ... الخ ، كلمات لا تثير اية عاطفة .

الاغنية رقم(٩) — غناء سلمى —
بعثلي حبيبي مع طير الحمام
رساله مليانه اشواق وغرام
وحالي عجناحو اشعار وانغام
والورد اللي فيخده امال واحلام

كلمات لينة وجميلة ومعبرة . اضف الى ان سلمى تتمتع بصوت مليء وعميق . يحوي بين امواجه وطبقاته اشياء كثيرة تعبر عن عاطفية صوتها الذي يتحكم بالاغنية كلاما ولحنا ويؤديها احسن اداء وبكل هدوء .

الاغنية رقم (١٠) — غناء نصري القط — وفي مطلعها :

نيسان يا معطر بانفاس الزهور
يا اغصان ترقص على صوت الطيور
يا تلال خضره صحيت على الحجل
ياشمس دافية تبعث حيوآمل

كلمات ممتازة . ولكن كان على الملحن ان يعطي لهذه الاغنية لحنا غير مألوف ، فثوب هذه الاغنية هو ثوب عام ومعروف اي ان الملحن لم يعط شيئا جديدا وكذلك المغني نصري القط نفسه فانه لم يقدم لنا اي شيء جديد ، بل وفي كل اغنياته تسمعه لا يزال متأثرا بوديع الصافي، وهذا نوع من الضعف ، فعلى المطرب الناشيء ان يتخذ لنفسه شخصية فنية قائمة بذاتها لا تقلد هذا ولا ذاك ، الا في البداية — اي كهاو فقط — فطالما حاولنا ان نخلق في هذه البلاد فنا عربيا في الغناء والطرب فلقد وصلنا تقريبا الى بداية هذا التحقيق وعلينا ان نأخذ بيد كل مطرب ناشيء وان ندعمه بفن متين لان الاشياء التي لا اسس متينة لها نهايتها الانتهاء من هذا العالم ، وبالمناسبة مع اجمل التحيات الى جميع من اسهم في ذلك سواء أكان في الغناء او التلحين او كتابة الكلمات وكلي امل بالتقدم نحو الافضل .



سلمى فازت في المهرجان



لقاء مع الفنان

ناجي توفيق عثامنة

اجرته عايده اغبارية

التقيت معه في كفر قرع حيث ولد وترعرع وتلقى دراسته الابتدائية في مدارسها ناجي كل تشجيع في دراسته الموسيقية من والده واهله .

ناجي عمره ٢٤ سنة تخطى السنة الثالثة الى الرابعة في جامعة بار ايلان لدراسة الموسيقى .

ناجي كاتب كلمات وملحن وعازف ومطرب .

س — ما هي الدوافع التي حدت بك لتعلم الموسيقى ؟

ج — كانت هذه مجرد هواية وتعليمي كان مجرد تنمية للموهبة ، وبما ان الفن لا يعتمد على الموهبة وحسب ، بل وعلى الثقافة الموسيقية . لذلك رأيت انه لابد من الدراسة في معهد عال .

س — هل تساهم دراستك هذه في نهضة فلكلورية في الوسط العربي ؟ وهل تحبذ الاكثار من الاغاني الفلكلورية ؟

ج — بكل اسف لا . لانني متفرغ لدراسة النوته الغربية وهذا لا يعني انني سوف اترك وانسى التراث الشعبي — الشرقي والموسيقى الشرقية .

والاغانى الفولكلورية هي التي أكرس لها كل اهتمامي لانه القالب الذي يحفظ التراث الشعبي من الضياع ، والاغنية الشعبية هي الاغنية الصادقة التي تعبر عن الحياة والظروف التى تعيش فيها .

س — لماذا قررت دراسة الموسيقى الغربية بالذات .

ج — لقد درست الموسيقى الشرقية في معهد روبين في حيفا ولكن هذا لا يكفي لتأهيلي كموسيقار ، فضلت ان اطلع على صبغة الموسيقى الغربية وطابعها ، هذا بالاضافة الى عدم وجود قسم لتعليم الموسيقى الشرقية في الجامعة .

س — ما رايك في الاغنية العربية المحلية ؟

ج — تحتاج الى تنويع وتجديد .. والى ملحنين اكفاء مع احترامي وتقديرى للملحنين الاسرائيليين الا انهم يضطرون الى اخذ الحان قديمة ويعملون على تطويرها . ولكن هذا شيء جميل يشكرون عليه واجمل منه لو ابتكروا الحانا جديدة .

س — ماذا تقترح لرفع شان الموسيقى والاغنية العربية ؟

ج — تنويع الالحان، التعمق في ابتكار الالحان الجديدة وعدم حصر روتين ملته اذاننا . وحبذا لو يشعر الفنان بان فنه هو رسالة عليه ان يؤديها للناس وليس مهنة لكسب الرزق .

س — الان الى المهرجانات والمسابقات الغنائية .

يقول ناجي : —

— ان المهرجانات هي الطريق المباشرة لاكتشاف المواهب ، ويدعو للسرور ان يلاقي وتشجيع موسيقانا والحاننا المحلية .

● **وعن التحكيم في المهرجانات والمسابقات .**

يقول ناجي :

— انا لا استطيع ان اثق كليا بأذواق الجمهور والموجوده في القاعة فقد تكون اذواقهم غير سليمة وقد يكون : وقد يكون حضورهم للمهرجان لمجرد تأييد مشترك على اخر لمجرد قرابة لهم وصداقته او معرفته .

● **ما هو رايك في الاغنيتين اللتين اشتركت بهما في مهرجاني ١٩٧٣ ، ١٩٧٤ .. هل انت راض عنهما من ناحية المستوى الفني ؟**

— الاغنية الاولى في مهرجان ١٩٧٣ «ما انت داري» التي كتبت كلماتها والحانها نالت اعجاب الجمهور . اذيعت كثيرا وسمعت الكثير يرددونها ، اغنيتي الثانية ١٩٧٤ «مهلك مهلك» انفردت بين الاغنيات الاخرى التي اشتركت في المهرجان والمسابقة ، بكونها تحمل المزيج من الطابع الشرقي والغربى معا . فقد مزجت اللحن الغربى وحافظت على الشرقية وادخلت لها ما يسمى بالهرمونى اي تناسق الاصوات حيث كانت كل الة تعزف بطريقة تختلف عن الاخرى وكان اللحن غاية في التجديد ، وهذا ما اسعى اليه في الحاني .

س — ولماذا لم تنل اي جائزة من اي جائزة من الثلاث ؟

— مجتمعنا شرقي يتحلى افراده بأذان شرقية ولم يستادوا على الطريقة الهرمونية مثلا ، لان اذانهم معتادة على الالحان الشرقية . ولا شك ان الجمهور نظر الى اغنيتي هذه بغرابة ومع هذا فانا راض عنها وواثق بأننا سنعتاد على الالوان الجديدة المطوره فالتجديد خطوة هامة وضرورية في حركتنا الفنية النامية .

● **حدثنا قليلا عن نشاطك الفني في الجامعة ؟**

— انى الى جانب دراستي واهتمامي في دراسة طريقة التلحين الغربية الشامل عن الطريق الهرموني والكونتربونكط ، فقد انيط بي بتعليم الموسيقى بالجامعة . تاريخها وشخصياتها ، المقامات الشرقية والالات الشرقية .الخ .

● **هل لديك اغنيات ملحنة غير التي اشتركت في المهرجان؟**

— نعم لي اغنيات كذلك وساسجل قريبا الحانا اخرى.

● **ما هي برامجك بالنسبة للمستقبل بعد تخرجك من هذا المعهد ؟**

— الالتحاق بمعاهد عليا اخرى للتلحين وتطوير الاصوات وان املك الكفاءات للتلحين وان ادخل صف الملحنين والمطربين المعروفين . وفي هذه السنة قررت الجامعة ان تمنحني منحة لتكملة دراستي الموسيقية في بلد اجنبي مثل امريكا وتستمر الدراسة سنتين .

مواهب من بلدي

بقلم : فايز الكردي — عكا

من المواهب الفنية الصاعدة الرسام والنحات وليد خير قشاش من عكا . ووليد شاب في مقتبل العمر لم يكمل ربيعه الثامن عشر بعد . فنان اصيل وموهوب .

تحس بأصالته الفنية منذ اللحظة الاولى التى تلقاه فيها وحين تشاهد رسومه وتماثيله المنحوته تدرك السبب ويزول العجب .

يتحدث بحماس الشباب وهو يشرح رسومه . فترى فيه اطلاع الخبير ورقة الفنان وخصوصا عندما يوضح لقطة معينة استرعت انتباهك او نبهك هو اليها .

يرمز الى الارض التى يحبها وليد حبا لا حدود له ويعتبرها الام الحنون ومصدر الخبز كله للانسان .

تعلم النحت في بيت الكرمة بحيفا فأجاده وابدع فيه يعتز بتمثال نحته اثناء فترة دراسته في بيت الكرمة يمثل الشباب والجنس .

اشترك في معرضين اقيما في بيت الكرمة بحيفا . يفكر في السفر الى باريس بلد الفنون لدراسة فن الرسم والنحت. الا ان المال يعوزه ويعيق تنفيذ الفكرة . لذلك فهو يعمل الان جادا لتوفير المال اللازم لسفره

الفنان وليد خير قشاش مع لوحاته

لوحاته لا تتبع مدرسة «التجسيم» صاحبة القاعدة الذهبية القائلة بأن الفن هو محاكاة للطبيعة وتقليدا لها كما انها ليست تجريدية بالمعنى الفني المعروف . بل هي مزيج من الاتجاهين تمثل رؤية ذاتية داخلية عن قضايا موضوعية وواقعية . من هنا فان وليد فنان ملتزم الى ابعد الحدود. جميع لوحاته تعبر عن قضايا الجماهير وكفاحها من اجل الخبز والسلام .يكثر من استعمال اللون البنى لانه

ندعو له بالتوفيق ونتمنى له تحقيق اماله واحلامه .

تعقيب

في حالة حصول السيد وليد خير على موافقة من مؤسسة اكاديمية لقبوله فيها لدراسة الرسم والنحت ،فبامكانه الحصول على منحة دراسية مناسبة لهذه الغاية . بامكان السيد وليد مراجعتي بعد حصوله على الموافقة

محمود عباسى



رقم — ٢٥٨ —

باشراف : عيسى الحرباوى

اعد هذه المسابقة صديق المسابقة خليل اسكندر مسد من الناصرة .

الملحن رياض السنباطى لحن العديد من الاغنيا خاصة لكوكب الشرق «ام كلثوم» ولحن لها معظم اغاني الا انه غنى ثلاث اغنيات من الحانه من بينهم اغنية دينية فما اسم الثلاث اغنيات ؟

حل ونتائج المسابقة رقم — ٢٥٧ —

لم يفلح سوى عدد قليل جدا من اصدقاء المسابقة معرفة الحل الصحيح لهذه المسابقة .

الحل الصحيح : —

١ — اسم اول فيلم مثله حسين فهمي : نار الشوق
٢ — اسم البطلة التى ظهرت معه في الفيلم : صبا

اسماء الفائزين

لقد فاز بالقرعة كل من : —

١ — سعود الحنبلي — نابلس—شارع النجاح أ —رقم البيت
٢ — سمعان منصور — قرية الجش — الجليل الاعلى

«اصحاب الحلول الصحيحة »

القدس — ناديا سليم
حيفا — عايده حسن ، فاتن حسن ، جدعان حلبي
نابلس — سعود الحنبلي
رام الله — انطون منصور
الجش — سمعان منصور
ام الفحم — باسم محمد توفيق ، كاظم محمد ... عبد الرحمن محمد احمد .

قسيمة رقم — ٢٥٨ —

الاسم : ____________________

العنوان : ____________________

التوقيع : ____________________

هكذا من الأصل

الاذاعة

مواعيد نشرات الاخبار
٦٫٣٠ ، ٧٫٣٠ ، ٩٫٣٠ ، ١١٫٣٠ ، ١٣٫٣٠ ، ١٥٫٣٠ ، ١٧٫٣٠ ، ١٩٫٣٠ ، ٢١٫٣٠ ، ٢٢٫٣٠ ، ٢٤٫٠٠

٦٫١٥ القرآن الكريم وحديث نبوي ٦٫٢٥ كلمة الصباح ٨٫٠٠ برنامج استديو رقم (١) ٩٫٤٥ المسلسل البوليسي من انت يا جريجوري ١٠٫٠٠ مجلة الاسرة ١٠٫٣٠ ما يطلبه المستمعون ١١٫٠٠ نقل إذان الظهر وخطبة الجمعة والصلاة ١٢٫٣٠ القلب يعشق كل جميل — ام كلثوم ١٣٫٠٠ حكايات غريبة ١٣٫٢٥ ملاحظة ١٣٫٤٥ مذكرات عبد الحليم حافظ ١٥٫٠٠ طبيب وراء الميكرفون ١٥٫٣٥ نشرة اقتصادية ١٦٫٠٠ دنيا الاطفال ١٦٫٣٠ مسابقة القرآن الكريم ١٧٫١٠ عالم الصحافة ١٧٫٢٠ تلاوة القرآن الكريم ١٧٫٢٨ اذان المغرب ١٧٫٣٠ برنامج مشاعر مع الايمان والنور ١٨٫٠٥ على حسب وداد قلبي — عبد الحليم حافظ ١٨٫٢٥ رسائل المستمعين العرب الى ذويهم في الخارج ١٨٫٣٠ مجلة الموسيقى ١٩٫٣٥ كلمة الدار ١٩٫٥٠ احبه كثيرا — فايزة احمد ٢٠٫٣٠ من الغناء العراقي ٢١٫٠٠ ما يطلبه المستمعون ٢١٫٤٥ تمثيلية سجناء الماضي ٢٢٫٠٠ مع الصحافة العربية ٢٢٫١٥ موال واغنية ياللي رميت الشبك — محمد العزبي — اضحك يا قمر — صباح ٢٢٫٤٥ العالم في الرايه ٢٣٫٠٠ ضيعت مستقبل حياتي سؤكريا احمد ، يا حبيبي العين ضياها — ليلى مطر ، اشكي لمين ذل الهوى — موشيه الياهو ٢٣٫٣٠ مطربة السهرة سعاد محمد ٢٤٫١٥ من الحفلات الغنائية : ادى الربيع — فريد الاطرش ، مستحيل — ورده ٠٫٤٠ المصحف المرتل .

التلفزيون

١٥٫٠٠ الى روما مع حبي ١٥٫٣٠ سلام لقدوم السبت ١٧٫٣٠ موجز انباء ١٧٫٣٢ فيلم سينمائي عربي (انتصار الشباب) بطولة فريد الاطرش واسمهان ١٩٫٣٠ برنامج خاص بمناسبة شهر رمضان المبارك شخصيات في تاريخ العرب ١٩٫٤٥ نشرة الاخبار المصورة ٢٠٫١٠ هذا الاسبوع ٢١٫١٥ غنيت يا بلادي ٢٢٫١٥ دراما ٢٣٫٠٥ موجز انباء بالعبرية .



٨٫١٥ رياضيات ٨٫٤٠ فقرات ادب الصف السابع ٩٫٠٥ حساب ٩٫٢٥ وفيزياء ١٠٫٠٠ بيولوجية ١٠ مدنيات ١٠٫٤٥ استشارة توجيه للصف السادس ١١٫٠٥ ثقافة واجتماع ١٢٫٠٠ ثقافة واجتماع ١٢٫٤٠ ثقافة واجتماع .

على هامش الحديث عن صواريخ بيرشينغ

« توازن الرعب » قد يوفر فرصة للسلام في المنطقة

بقلم : مراسل عسكرى خاص

على الرغم من انه لم يتم بعد تزويد صواريخ «بيرشينغ» الامريكية لاسرائيل ، كما نشر فقد تصل هذه الصواريخ الى المنطقة في نهاية الامر • وبهذه الطريقة سيتعزز عصر صواريخ الارض — ارض الذى نعيشه منذ عدة سنوات •

ان نظرة تاريخية تدل على ان المصريين كانوا اول من ادخل صواريخ ارض — ارض بعيدة المدى الى المنطقة فقد اعلن الرئيس جمال عبد الناصر في سنوات الستين ان مصر تقوم بتطوير وانتاج صواريخ ارض — ارض قادرة على ضرب المراكز السكانية في اسرائيل ومنذ ذلك الحين كانت هذه الصواريخ تهدف لان تكون وزنا مقابلا للتفوق الجوى الذى كان ولا يزال يتمتع به سلاح الجو الاسرائيلي •

ان محاولات انتاج هذه الصواريخ في مصر ، بما في ذلك مساعدة من جانب مهندسين وفنيين من المانيا الغربية قد باءت بالفشل • لكن في حرب اكتوبر ١٩٧٣ كان لدى الدول العربية ، مع ذلك ، صواريخ ارض — ارض من انتاج سوفياتي بالطبع • وكانت هذه صواريخ من طراز «فروغ» وصواريخ «سكاد» •

وقد استخدم المصريون والسوريون في حرب اكتوبر صواريخ «فروغ» ذات مدى ٧٠ كيلومترا • وبالنسبة للمصريين كانوا بعيدين عن المراكز السكانية في اسرائيل ، فقد استخدموا صاروخ «فروغ» — وهو سلاح تكتيكي — لضرب المعسكرات ومراكز الجيش في سيناء • وكانت نجاحات الصاروخ محدودة جدا •

اما السوريون فقد حققوا نجاحات اكبر اذ اطلقوا صواريخ «فروغ» في اتجاه الاراضي الاسرائيلية واصابوا بلدة مجدال هعيمق والمنطقة كلها •

وكان الرد الاسرائيلي على صواريخ «فروغ» — يبدو انه لم تطلق صواريخ «سكاد» ذات مدى ٤٥٠ كيلو مترا والتي تمتلكها سوريا ومصر — هو سلاح الجو فقد اصابت طائرات سلاح الجو الاسرائيلي اهدافا استراتيجية في عمق الاراضي السورية وكذلك خزانات نفط ومعامل التكرير وموانىء ومنشآت عسكرية واقتصادية وغيرها •

ان اسرائيل لم تستخدم حتى الان صواريخ ارض — ارض ، رغم ان الصحف الاجنبية تؤكد مرارا ان لدى اسرائيل صواريخ ارض — ارض تدعى «يريحو» • ولا تتوفر معلومات كثيرة عن هذا الصاروخ • ويتضح ان مداه يبلغ حوالى ٤٥٠ كيلو مترا ، وانه قادر على حمل راس نووى • وكما ذكرنا فلا يوجد ما يؤكد وجود مثل هذا الصاروخ لدى اسرائيل •

وبعد حرب اكتوبر ١٩٧٣ — جددت اسرائيل محاولاتها من اجل الحصول على صواريخ ارض — ارض امريكية من طراز «لانس» • وهذا صاروخ يتراوح مداه بين ٤٥ — ١٠٠ كم ، وهو دقيق الاصابة جدا ، ويستخدمه الجيش الامريكي فقط وكما تبدو الامور الان — فان اسرائيل قد تحصل قريبا على صواريخ «لانس» الامريكية •

ويمكن اطلاق الصواريخ من اسرائيل واصابة عمق الاراضي السورية وربما العمق المصرى ايضا • وهذا جزء من الرد الاسرائيلي على صاروخي «فروغ» و «سكاد» اللذين تمتلكهما الدول العربية •

والمركب الثاني في الرد الاسرائيلي ، قد يكون على ما يبدو صواريخ «بيرشينغ» ويبلغ مدى هذا الصاروخ حوالى ٨٠٠ كيلو متر • انه قادر على ان يصيب بدقة متناهية اهدافا استراتيجية وحيوية في العراق ، سوريا ومصر وحتى نقاطا ابعد من ذلك • ويمكن نقله برا وكذلك جوا ان صواريخ «بير شينغ» تفتح عصرا جديدا في الشرق الاوسط ، لكنها تسير قدما بالعصر الذى نعيشه الان •

ان الحروب في المستقبل ستصيب كل مواطن في مصر ، سوريا وفي اسرائيل كذلك ان القدرة المتبادلة للدول على اصابة عمق اراضي بعضهما البعض قد ازدادت اكثر مما كانت عليه في السابق

وفي هذا خطر و •• امل فقد نجم هنا تدريجيا ما يمكن تسميته بـ — توازن الرعب — فاسرائيل والدول العربية مجهزة باسلحة متماثلة • والقدرة الان متساوية ، وهذا قد يخلق سببا لعدم اطلاق الصواريخ • والامور معروفة ايضا من خلال ميزان القوى بين الدول الكبرى •• فاذا كانت القدرة متساوية فان الدولتين تتعرضان للابادة ، ولكن تكون هناك قدرة على الحسم ، ولن يسرع البلدان لاستخدام الاسلحة التى بحوزتهما •

وبالاضافة الى الخطر الذى يكمن في تزويد صواريخ بعيدة المدى للطرفين ، فان هناك احتمالا في ان تظل هذه الصواريخ على الارض •

ولننتقل الى نقطة اخرى واخيرة لنقول انه بصواريخ بيرشينغ وبدونها فان اسرائيل ستظل تعتبر الذراع الجوى عاملا اساسيا •

وهذا الامر يعني استخدام مبالغ ضخمة وقوى بشرية ومن هنا يجب رؤية الرد الاسرائيلي على الصواريخ مع اخذ سلاح الجو الاسرائيلي بعين الاعتبار •

واليوم ، ورغم الاجهزة المضادة للطائرات المتواجدة لدى مصر وسوريا فان اسرائيل قادره بواسطة سلاح الجو على اصابة نقاط حساسة وحيوية في عمق الاراضي السورية او المصرية •

ستوديو كلايمن ملون
شارع يافا ٨٢ — حيفا
٥٢١٧٦٢ في البيت ٨٢٥٧٦
خبير لتصوير الاعراس
وافلام ملونة مصور صور
ملونة بسعر اسود وابيض
على استعداد لاستلام طلبات
لايام السينت •
هدية لكل عروسين

فوتو سنترال
حيفا شارع يافا ٩٣
تلفون — ٥٢٤٩٨٤
ستديو خاص لتصوير الاعراس وجميع سائر الاعمال في فرع التصوير

زجليات رمضانية : الى ملحد

بتقول إنك طبيعي دون خوف وندم
.. والقرد جدك ، وإنك من وحول القدم
إن كان ماصلك يا ملحد زي ما بتقول :
بيكون قرد الوحل ، خلف تفاهه ، وعدم

زجال الشعب

الامال الثلاثة

— تتمة المنشور على الصفحة الثالثة —

واحدة على الفساد والانحطاط والظلم والقهر ، نجحوا في بعثرتها ثورات ، وثورات بعضها ضد البعض . يدفع الابرياء ثمنها ، ويبقى محركو الفتنة في مأمن من الفتنة ويقطفون ثمار الفتنة

وما داموا في مأمن فلماذا يكترثون؟ ولماذا لا يتابعون «اللعبة السياسية» ما دام شراب اللعبة دم الاخرين ؟

ولماذا تتوقع من اي كان ان يمتنع عن الارتكاب والتضليل واحراق الوطن ما دام في هذا الشعب من يمشي في ركاب المرتكبين والمضللين وحارقي الوطن ، وما دامت السلطة على الحياد؟

وما دام الشعب شعوبا وثورته ثورات ، فماذا يخشى تجار الفتنة ؟

كنا الى الامس ، بل ما زلنا حتى اللحظة نحلم بثورة الشعب كسهم اخير للانقاذ • لكنهم هدروها ، ثورة الشعب • ولم يعد يخشاها اعداء الشعب •

لقد شرذموها ، وقسطوها ، وخلعوها ، وقبرصوها ، وجعلوها ثورة الشعب ضد نفسه وضد وطنه • فماذا يخشون بعد ؟ ماذا يخشون والشعب ينتحر ؟

كلا لن تثور ثورة الخلاص ايها الشعب • كان ذلك حلما • لقدجننوك واتنحروك •

واصبحت انت في حاجة الى من يثور عليك ليخلصك •

× × ×

يبقى الحكم الخارق •

اين هو هذا الحكم ؟

انه مجرد طيف في الاماني •

الدولة اذا تائهة ، والشعب متروك لغرائزه ، والمال يتدفق من الخارج لتشغيل الة الخراب •

والمؤامرة مستمرة •

كان هناك بضعة زعماء مخلصين ، فعملت المؤامرة على تشويه ادوارهم وحصر نطاق تأثيرهم في فئات دون سواها من الشعب •

وكانت هناك يد السلطة التي قيل من حديد ، فقطعتها المؤامرة قبل ان تراها •

وكان هناك امل في الجيل الجديد ، فاذا العنف يجرفه حيث كان العجز يشل الجيل القديم •

لم يبق شيء •

لم يبق الا المعجزة •

× × ×

فلنطلب من الله ان تحدث •

كل طمانينة اخرى كاذبة • كل تطمين اخر باطل •

صلوا •

صلوا بقوة الخوف ، بقوة الياس، صلوا بقوة الرجاء الباقي دائما في قعر الخوف والياس •

لم يحفظ لبنان احد غير الله •

الله حفظه ضد القراة والله حفظه ضد الطامعين والله حفظه ضد رعونة ابنائه •

صلوا لكي نعود فنعيش معا ولكي ندرك اننا اذا كنا لا نلتقي في ميولنا فذلك ثواب لنا في تسابقنا نحو الافضل ثواب لنا لا عقاب •

صلوا لكي نجتاز مرحلة الاستسلام للقدر كنا نتحمله حتى الان مقهورين مكبوتين ، الى مرحلة ارادة الحياة معا حياة حرة فرحة ، عوض تفجير القهر والكبت تقاتلا من اجل غلبة لا عدل فيها ، وفي سبيل مصير لا مصير له •

صلوا لكي تعود الكرامة محل الارهاب ، والعنفوان محل العنف ، والايمان محل التعصب ، والتسامح محل الحقد ، والرافة محل الوحشية، والطيبة محل الخديعة ، والشهامة محل الغدر ، والمروءة محل السفالة • هكذا كان لبنان • هكذا تعمر لبنان • هكذا عاش لبنان طوال العصور وهكذا يجب أن يرجع •

صلوا لكي يسحق الله الوحوش فينا ، ولكي يستبدل سلاح القتل بسلاح الحياة والسلام •

صلوا لكي نعود شعب اللقاء •
صلوا لكي يغفر لنا •
صلوا لكي يلتفت الينا •
صلوا لكي يشفق علينا •
صلوا فلا خلاص بغير المعجزة •

عن «النهار» — بيروت

من يوميات — تتمة

مصر — هذا امر مألوف ومقبول ••

ان يحصل الروس على مساعدة امريكية ، هذا امر مألوف ايضا ، ولا غبار عليه ••

لكن ان يحصل المصريون وهم المحتاجون على مساعدة من الولايات المتحدة فهذه خيانة للقضية ، وهذا بيع رخيص لقضايا العروبة •

ترى هل السادات هو الذى باع القضية ، ام هم زعماء الكرملين الذين باعوا المنطق ؟!

رباح سعيد مرعى
يقدم تعهدات فنية بالقصارة العربية والاجنبية
نابلس — راس العين ، اول طلعة جبل جرزيم

السياسة الاقتصادية — تتمة

الجمركية لان صندوق النقد الدولي والسوق الاوروبية المشتركة يعارضان في ذلك •

وقد فتحت امام اسرائيل قبل بضعة اشهر فقط ابواب السوق الاوروبية المشتركة ، والحكومة غير معنية بالطبع باتخاذ خطوات تنال من كامل عضويتها في السوق المشتركة •

ان اسرائيل معنية بالسوق الاوروبية كمصدر هام للتصدير • وما بقي على الحكومة ان تفعله هو زيادة ضريبة الشراء ، تخفيض قيمة الليرة ، وزيادة سعر الوقود • ولكنها بذلك لم تحل المشاكل الاقتصادية ويتكهن خبراء اقتصاديون انه يتوقع ان يجرى قريبا تخفيض اخر على قيمة الليرة • حتى اذا لم يكن هناك تخفيض «كبير» فان التخفيض الزاحف سيستمر •

لقد تنوعت ردود الفعل على خطوات الحكومة داخل اسرائيل في اوساط الاقتصاديين ورجال الصناعة ورجال التجارة والمصارف • وقد قوبلت هذه الخطوات بالترحيب بصورة عامة ، لكن كان هناك تحفظ من ان هذه الخطوات لم تكن كافية لتوفير علاج شاف للاقتصاد •

وقد وصلت من خارج البلاد ردود فعل رحبت بالاتفاق •

وقال موظف كبير في وزارة المالية الامريكية ان اسرائيل تؤكد مرة اخرى على انها عاقدة العزم على تعزيز اقتصادها بقوتها الذاتية ، وعدم الاعتماد على المساعدة الخارجية •

وفي لندن قال موظف كبير في وزارة المالية البريطانية ان اسرائيل تقدم نموذجا لبلدان اخرى تأثرت من ازمات اقتصادية • ومما لا شك فيه انه كان على الحكومة اتخاذ الخطوات التي اتخذتها لكبح جماح التدهور في ميزان المدفوعات وسد العجز في الخزينة •• لكن الخطوات التى اتخذتها الحكومة ، وضعت من قبل اقتصاديين وخبراء كوسائل تهدف لمنع تدهور الوضع الاقتصادي ، لكن ليس من شأنها ان تحسن هذا الوضع • ان تخفيض قيمة الليرة بنسبة ١٠ بالمائة سينعش الصادرات قليلا (التى لم تزدد حجمها خلال الاشهر الاخيرة) وسيقلص الواردات • غير ان رجال الصناعة اعربوا عن شكوكهم في ان يؤدى تخفيض الليرة الى تحرك كبير في المجال الاقتصادي ، اذ يجب ان نتذكر بأن الصادرات الاسرائيلية متعلقة ليس فقط بما يجرى في اسرائيل ، بل بوضع الاقتصاد العالمي كذلك •

أن امتصاص الاموال من الجمهور له ما يبرره زيادة التضخم المالي • بينما جاءت زيادة اسعار الوقود بعد قرار دول منظمة «اوبيك» (الدول المصدره للنفط) الذى اتخذ في الاسبوع الماضي بشأن رفع اسعار الوقود بنسبة ١٠ بالمائة اعتبارا من شهر تشرين الاول الجارى • ومع ذلك يقول منتقدو البرنامج انه كان على الحكومة ان تبذل جهدا اكبر لتقليص ميزانيتها حتى في هذه المرحلة المتأخرة من السنة المالية • ولهذا التقليص مغزى اقتصادي مباشر وكذلك مغزى ادبي يمكن تقديمه كانموذج للجمهور •

وقد امتنعت الحكومة ، كما ذكرنا، عن الغاء المساعدات المالية «السوبسيديا» على المنتجات الاساسية وذلك بضغط من الهستدروت التي قالت ان عبء السياسة الاقتصادية سيقع على الطبقات ذات الدخل المحدود •

ان هذه السوبسيديا ستكلف الحكومة الان اكثر من مليار ليرة ، واعرب رجال اقتصاد عن اعتقادهم بانه كان على الحكومة الغاؤها كجزء من الخطوات الاقتصادية الحازمة • غير ان الحكومة لم تستطع تجاهل موقف الهستدروت التى اعلن رؤساؤها انه اذا ادت الخطوات الاقتصادية الاخيرة الى ارتفاع جدول غلاء المعيشة باكثر من ٥ بالمائة فستطالبون الحكومة بتقديم موعد المفاوضات حول اتفاقيات الاجور الجديدة

وفي اشهر تموز الماضي ، وعندما وقعت اتفاقيات الاجور ، وعدت الحكومة الهستدروت بانه حتى كانون الثاني ١٩٧٦ — وهو موعد انتهاء مفعول اتفاقيات الاجور ، لن تزاد اية ضريبة

وانتقد ممثلو احزاب المعارضة من جانبهم ، الحكومة بشدة ، وقالوا ان هذه الخطوات تعني ان السياسة الاقتصادية للحكومة قد فشلت •

وقال احد اعضاء الكنيست من كتل المعارضة «انه لا داعي لزيادة الضرائب من اجل سد العجز في الميزانية» واضاف انه يمكن فعل ذلك عن طريق زيادة نجاعة الضريبة •

وبدا واضحا هذا الاسبوع ، انه سواء كانت الخطوات التي اتخذتها الحكومة حسنة ام لا فانها ليست الخطوات الاخيرة ، ويتوقع ان تتخذ الحكومة في المستقبل القريب خطوات اخرى •

برنامج كوح ١٠٠٠٠ يستمر



قررت وزارة المالية تمديد مدة برنامج التوفير كوح ١٠٠٠٠ •
عشرات آلاف الموفرين انضموا حتى الان الى انجح وافضل برنامج توفير موجود اليوم •

انضم انت ايضا الى هذا البرنامج لتستفيد من هبة فورية بقيمة ١٠٪
وفائدة معفاة من ضريبة الدخل وارتباط المبلغ والهبة بجدول غلاء المعيشة •
وكذلك اعفاء المبلغ والفائدة وفروق الارتباط من ضريبة الدخل •
توجه اليوم الى احد فروع بنك لئومي ليسرائيل ب•م• او البنك العربي الاسرائيلي م•ض•

لاختيارك : ايداع بدفعة واحدة حتى ١٠٠٠٠ ليرة وايداع بدفعات شهرية ابتداء من ٥٠ ليرة في الشهر

بنك لئومي ليسرائيل ب•م•
البنك العربي الاسرائيلي

قيادة منطقة الضفة الغربية
الخدمات الطبية
اعلان عن وظائف شاغرة

تعلن ادارة الخدمات الطبية في الضفة الغربية عن وجود وظيفتين شاغرتين لباحثة اجتماعية للعمل في مستشفى الامراض العقلية في بيت لحم
— المؤهلات المطلوبة : ليسانس علوم اجتماعية او دبلوم الخدمة الاجتماعية •
الدرجة : حسب المؤهلات •

فعلى من تجد في نفسها الكفاءة ان تتقدم بطلب خطي مرفقا بالشهادات العلمية الى :
ادارة المستشفيات — عين مصباح — رام الله
تقبل الطلبات بين الساعة التاسعة صباحا والساعة الثانية عشرة ظهرا يوميا عدا يوم الجمعة •
اخر موعد لقبول الطلبات ١٠-١٠-١٩٧٥ •

ل• تويكسلر
المدير الاداري للخدمات الطبية
بيت ايل

الخدمات الطبية
الضفة الغربية
قسم التعليم

مدرسة التمريض العملي للفتيات — طولكرم

يعلن مكتب التعليم للخدمات الطبية انه ستبدأ الدورة الرابعة لتعليم مساعدات الممرضات المؤهلات في مدرسة التمريض بطولكرم في الاسبوع الاخير من تشرين اول سنة ١٩٧٥ وستكون المدة الدراسية ثمانية عشر شهرا وتقبل فيها الطالبات من حملة الشهادة الثانوية •

تعيش الطالبات في القسم الداخلي ويقدم لهن التعليم والغذاء واللباس الرسمي مجانا •

تتقاضى الطالبة ما يلي : —
١— ٨٠ ليرة اسرائيلية شهريا في السنة الاولى •
٢— ١٠٠ ليرة اسرائيلية شهريا في السنة الثانية •

تقدم طلبات الالتحاق الى مدرسة التمريض بطولكرم يوميا اثناء ساعات الدوام ما عدا ايام الجمعة او بريديا لمدة اسبوعان من تاريخ نشر هذا الاعلان (اي الى غاية تاريخ ٨-١٠-١٩٧٥) •

التمريض مهنة شريفة تخدم المرضى وتساعد المحتاجين •

حنا وديع سليمان
رئيس قسم التعليم — للخدمات الطبية — بالضفة الغربية

الكلمات المتقاطعة

اعداد — كمال حميد ابو يونس — سخنين

الكلمات الافقية :
... عباسي
... اوروبية
... بعد ، سلام ، النصر (بالانكليزية)
قفز ، جمعا في دموع
يلهو ، تطلب
بين جبلين رجل (مبعثرة)
، اصبح ، حرفان متشابهان
المؤمنين
... وزير الزراعة •

الكلمات العمودية :
١— مدينة امريكية كبرى
٢— احد الخلفاء الراشدين
٣— اداة جزم ، تحرير ، للتأخير
٤— عكس جزرا
٥— قلق ، رجع (بالعامية)
٦— دولة كبرى ، طلب بالالحاح •
٧— صدقة ، سلم ، حرفان متشابهان
٨— الاسم الاول لمطربة عربية شعبية
٩— عاصمة دولة اسيوية كبرى •

هكذا من الأصل

الانباء
جريدة يومية سياسية
رئيس التحرير المسؤول
يعقوب حزمه
اصحاب الامتياز
جمعية منشورات اورشليم القدس
التحرير والادارة
شارع هاريكا ٧ روميما القدس
تلفون ٥٢٧٢٣٣/٤
المراسلات : ص.ب ٤٢٨
تطبع في
مطابع دوكما بع.
الجريدة غير مسؤولة
عن مضمون الاعلانات
الرسائل والمقالات
لا تعاد لاصحابها
نشرت او لم تنشر

وزير المالية : هدف الخطوات الاقتصادية
زيادة حجم الصادرات وتقدم وسائل الانتاج ..

القدس – صرح امس السيد يهوشوع رابينوفيتش وزير المالية ان الحكومة ستبذل قصارى جهدها من اجل تطوير المصانع التي تنتج للتصدير ، وانها ستسعى حتى لا يتضرر فرع الصادرات •

وكان السيد رابينوفيتش يتحدث في لقاء جرى في مكتبه مع رؤساء اتحاد ارباب الصناعة ومعهد التصدير • واضاف ان عمليات تخفيض سعر الليرة وجميع الخطوات الاقتصادية الاخرى التي تتخذها الحكومة تهدف اولا وقبل كل شيء الى زيادة حجم الصادرات وستبذل الحكومة كافة جهودها من اجل تشجيع فرع الصادرات ، ذلك لان مستقبل الاقتصاد يعتمد على الصناعة والصادرات •

واقر وزير المالية بصورة مبدئية طلب ارباب الصناعة ومعهد التصدير زيادة الميزانية من اجل زيادة حجم الصادرات واقامة مخازن للبضائع في الخارج ،



تنظيم الصادرات ، تحسين وسائل التسويق • وتقرر ان تقوم وزارة المالية بالتعاون مع وزارة التجارة والصناعة ومعهد التصدير ببلورة خطة مفصلة لزيادة حجم الصادرات •

وبحث في هذا اللقاء ايضا موضوع زيادة الميزانيات المخصصة لتمويل الصادرات بعد التخفيضات الاخيرة لسعر الليرة •

وتقرر انه سيتم خلال اسبوع البت من قبل بنك اسرائيل ووزارة التجارة والصناعة حول مسالة التعويض عن الصادرات لتخفيض قيمة الليرة •

وطلب وزير المالية في نهاية اللقاء من رئيس اتحاد ارباب الصناعة الاهتمام بعقد اجتماعات لارباب الصناعة لشرح ضرورة الانتقال الى انتاج مواد وبضائع لغرض التصدير •

صراع سعودي – ايراني في سلطنة عمان

الكويت – وصف – ذكرت امس صحيفة «الرأي العام» الكويتية ان المنافسة السياسية بين السعودية وايران اصبحت تشمل النزاع حول وتبرز ذلك النزاع في المؤتمر الاخير للدول المنتجة للنفط «اوبيك» الذي عقد في فيينا •

وتقول الصحيفة ان السعودية تنظر بقلق الى التواجد العسكري الايراني في سلطنة عمان وكذلك تنظر بمنظار الريبة والشك والقلق الى تعاظم قوة الجيش الايراني •

تغلغل سوفياتي في امريكا

واشنطن – يونايتدبرس – اعلن السناتور الامريكي باري غولدووتر ان الاتحاد السوفياتي تسلل بشكل كامل الى الولايات المتحدة ابتداء من الصناعة الثقيلة وحتى لجان الكونغرس •

وذكر انه سيطلب الى وكلاء المخابرات التحقيق في التهم حول تسلل السوفيات الى سبعة مكاتب او تسعة في مجلس الشيوخ •

وكان السناتور الامريكي يتحدث في مقابلة تلفزيونية •

سلب ٣٠٠ الف ليرة من صراف

القدس – قام ثلاثة اشخاص مجهولين امس بسلب اوراق نقدية بقيمة ٣٠٠ الف ليرة من احد الصرافين في شرقي القدس ويدعى صالح الحموري •

وقد قامت الشرطة حال وقوع الحادث بعمليات التفتيش بحثا عن المجهولين الذين لاذوا بالفرار داخل احدى السيارات •

وقد دخل اللصوص الى حانوت صراف العملة وكانوا يرتدون ملابس عسكرية واطلقوا عدة عيارات داخل الحانوت ثم سرقوا المبلغ الذي كان فيها •

توقع عودة الفرقة الفلهرمونية الاسرائيلية

تل ابيب – من المتوقع ان تعود بعد غد الى البلاد الفرقة الفلهرمونية الاسرائيلية بعد ان قدمت مجموعة من الحفلات الموسيقية في نطاق مهرجانات مهمة في القارة الاوروبية وخاصة في بون وروما •

وستفتتح الفرقة في الاسبوع القادم الموسم الجديد من الحفلات الموسيقية الفلهرمونية في البلاد •

رئيس الدولـة يزور حيفا
يشيد بالتعاون الوطيد بين ابناء الشعبين

حيفا – من شفيق منصور – قام البروفيسور افرايم كتسير رئيس الدولة امس باول زيارة رسمية لحيفا حيث اعدت البلدية على شرفه برنامجا حافلا بالزيارات واللقاءات مع المواطنين العرب واليهود في مدينة الكرمل • ففي تمام الساعة العاشرة قبل الظهر وصل موكب رئيس الدولة الى الساحة الخارجية بمبنى البلدية التي زينت بالاعلام الاسرائيلية والبلدية حيث كان في استقباله عضو الكنيست رئيس البلدية السيد يوسف الموغي وقرينته •

وقد وصل برفقة الرئيس كتسير السيدة عقيلته ومستشاره السياسي ومرافقه العسكري ومستشاره لشؤون الاقليات السيد كمال منصور وعدد من كبار موظفي ديوان الرئاسة • وبعد ان عزفت الموسيقى النشيد الوطني «هاتكفاه» دخل الرئيسان كتسير والموغي والحاشية الى قاعة الاجتماعات الكبرى في مبنى البلدية التي زينت بالاعلام وباقات الزهور حيث كان في الاستقبال عدد كبير من المدعوين برز بينهم الشيخ جبر داهش معدي نائب وزير الزراعة واعضاء الكنيست ووجهاء المواطنين العرب في المدينة وقضاة المحاكم ورؤساء المجالس المحلية اليهودية والدرزية في المنطقة ومفتش شرطة حيفا وقائدها العسكري • وفي كلمته الترحيبية اشاد رئيس بلدية حيفا بالرئيس كتسير رجل العلم الذي وصل الى كرسي الرئاسة بفضل علمه وجهاده واخلاصه •

وتطرق السيد الموغي الى حيفا من شتى جوانبها ، حيفا ذات العلاقات الاخوية بين ابناء الشعبين العربي واليهودي وحيفا السباقة في الصناعات الثقيلة والصناعات العلمية الدقيقة وحيفا التخنيون والجامعة وكلية الطب • وانهى السيد الموغي كلمته مقدما لرئيس الدولة هدية تذكارية عبارة عن راس اسد من البرونز عثر عليه في اعمال التنقيب عن الاثار عند سواحل حيفا • بعد ذلك وقف رئيس الدولة فشكر حفاوة الاستقبال واشاد بمدينة الكرمل المدينة المتطورة والمزدهرة وتمنى لها مستقبلا زاهرا كما اعرب رئيس الدولة عن تقديره الجم لعلاقات الصداقة والتعاون السائدة بين المواطنين العرب واليهود في المدينة وقال : ان حيفا مثل طيب للعلاقات الانسانية بين الشعوب وبعد تقديم واجبات الضيافة غادر رئيس الدولة مبنى بلدية حيفا يحف به رئيس البلدية وكبار المستقبلين والحاشية للقيام بجولة في معالم المدينة فزار اولا – المتحف البحري ومتحف القادمين الى البلاد سرا قبل قيام الدولة حيث استمع الى شرح واف عن تاريخ هذين المتحفين والاثار التاريخية العريقة التي تحتل العديد من القاعات والغرف • ثم توجه الموكب بعد ذلك لزيارة مصانع فينيسيا للزجاج الكائن في المنطقة الصناعية حيث تناول طعام الغداء على مائدة الادارة وبعد استراحة وجيزة في فندق دان كرمل واصل البروفيسور كتسير سلسلة زياراته ولقاءاته حيث كان المركز العربي اليهودي «بيت الكرمة» اول مكان يزوره في ساعات بعد الظهر •

وفي بيت الكرمة كان في استقبال رئيس الدولة ورئيس البلدية والحاشية اعضاء مجلس البيت يهودا وعربا • ولفيف من المثقفين والوجهاء من حيفا والقضاء وبضمنهم الشيخ محمد حبيشي قاضي عكا وحيفا الشرعي والسيد سهل جراح قاضي محكمة الصلح في حيفا والسيد فارس فلاح قاضي محكمة الصلح في عكا •

وهناك القت السيدة حمده الون نائبة رئيس المجلس الاداري لبيت الكرمة كلمة استعرضت فيها انجازات البيت ونشاطاته الثقافية والاجتماعية المشتركة •

ثم القى القاضي حبيشي الكلمة التالية : –

بالاصالة عن نفسي وبالنيابة عن اعضاء مجلس بيت الكرمة احييكم تحية طيبة وارحب بكم اجمل ترحيب في مدينة الكرمل الجميلة هذه المدينة

التي ضربت مثلا اعلى في العلاقات الطيبة القائمة بين سكانها من جميع الطوائف والاديان •

ومما يزيد في سرورنا ان نستقبل فخامتكم في هذا المركز الذي يعمل ليل نهار في سبيل توثيق وتقوية العلاقات والصداقات اليهودية العربية ويبني جسور السلام والمحبة بين اليهود والعرب والذي يرجع اليه الفضل في حسن الجوار والمعاملة الحسنة بين يهود حيفا وعربها على اختلاف مذاهبهم • وهو عبارة عن المختبر الذي تتفاعل فيه وتنصهر وتصاغ العلاقات العربية اليهودية في اجمل صورها وابهاها •

ان نشاطات هذا البيت لم تقتصر على مدينة حيفا بل تعدتها الى مدينة عكا والى قرية طمرا حيث افتتح فيهما مركزان مشابهان وانني انتهز هذه

الفرصة لادعو فخامتكم لزيارة القر العربية وتفقد احوالها واننا نسال الله العلي القدير ان يحل السلام بين دولة اسرائيل والدول العربية المجاورة وتوقع فخامتكم على معاهدة الصلح والسلام في القريب العاجل انه سميع مجيب •

ثم انهى السيد اوري طهون مد الادارة كلمة مناسبة القت بعده السيدة افلين شلهوب كلمة الحلقات النسائية في بيت الكرمة • وكان مسك الختام كلمة جامعة لرئيس الدولة البروفيسور افرايم كتسير استهلها معربا عن سروره لهذا اللقاء الاخوي في بيت الكرمة • وقال لقد استمعت كثيرا عن نشاطات وفعاليات هذا البيت وعن الدور الذي يلعبه في مجال توثيق العلاقات بين ابناء الشعبين وحث الجيل الصاعد •

وقال ان الطريق في العلاقات الانسانية التي استنها بيت الكرمة قد ساعد على توثيق الاحترام والتقدير والتعاون المشترك بين ابناء الشعبين •

كما اعرب رئيس الدولة عن اعجابه العميق بالنشاط الرياضي والفني والمسرحي الذي يمارس في اروقة البيت وقال لقد عادت بي الذاكرة الى العصر الذهبي في الاندلس حيث كان التعاون في اوجه بين الادباء والمفكرين العرب واليهود • وقال ارجو ان ياتي يوم يكون فيه بين مدرسي التخنيون و الطب اساتذة من المواطنين العرب •

وانهى رئيس الدولة كلمته صوته الى اصوات السلام •

واختتم اللقاء بنشيد السلام باللغتين العبرية والعربية قدمته جوقة بقيادة الاستاذ حكمت شاهين •

وبعد جولة في اروقة المركز رئيس الدولة وحاشيته الى مركز الاجتماعية على جبل الكرمل حيث الدورات الدراسية للطلاب الاسيويين والافريقيين • وهناك القت السيدة بتسفي مديرة المركز كلمة عن تاريخ والدور الذي لعبه في تخريج المدينة من طلاب اكثر من ١٠٠ في شتى انحاء العالم الذين انهوا دورات في الدراسات الاجتماعية اختلافها •

وبعد تناول طعام العشاء في المركز انتقل الجميع الى هيكل بيت روتشيلد حيث التقى رئيس الدولة في ساعة متاخرة مع جمع كبير من الاكاديميين ورجال الفكر والتعليم •

تقنين النفط في غانا

اكرا – رويتر – حظرت حكومة غانا امس استعمال الوقود في السيارات الخصوصية خلال الفترة من يوم السبت حتى مساء الاحد وذلك كمحاولة منها للتوفير في الوقود اثر قرار منظمة «اوبيك» رفع اسعار النفط بنسبة ١٠ بالمائة •

«المصور» المصرية تنشر مقالا
عن طائرات الميراج التي بحوزة مصر

القاهرة – وصف – نشرت امس مجلة «المصور» القاهرية اول مقال عن قاعدة مصرية لطائرات «الميراج اف ١» •

ونشرت المجلة تصاوير عن هذه الطائرات ومن بين هذه التصاوير ، صورة طيار مصري يقف بجانب طائرة «ميراج» • واكدت المجلة ان الطيارين المصريين الذين قادوا طائرات «ميغ ٢١» اظهروا قدرة قتالية كبيرة في حرب اكتوبر •

وقالت «المصور» ان طائرات «ميراج اف ١» الذين سيشتركون في العرض العسكري الذي سيقام في السادس من اكتوبر ١٩٧٣ ، وصلت الى مصر بواسطة المملكة العربية السعودية •

ويذكر ان فرنسا ستبدأ في موعد لاحق من هذا العام بتزويد مصر بطائرات الميراج وذلك حسب الاتفاق الذي وقع اثناء زيارة الرئيس انور السادات لباريس في شهر كانون الثاني الماضي •

وزير التجارة البريطاني يزور البلاد قريبا

لندن – الوكالات – يقوم وزير التجارة البريطاني بيترشوخ في السادس من الشهر الحالي بزيارة للبلاد تستغرق ثلاثة ايام •

وسيجري الوزير البريطاني خلال هذه الزيارة محادثات مع بعض الوزراء ورجال الاعمال حول شئون عملية واقتصادية مشتركة • كما سيتجول في اسبوع الصناعات المعدنية في تل ابيب وفي مصانع الكيماويات والفوسفات •

تبرع من عمان لضحايا الفيضان باليمن

صنعاء – رويتر – قال السيد عبدالله الاصنج وزير خارجية الجمهورية العربية اليمنية امس ان سفير سلطنة عمان سلم الحكومة اليمنية امس مبلغ ١٠٠٫٠٠٠ دولار كمساعدة من بلاده تبرعا لضحايا الفيضانات واعادة اسكانهم

وقال السيد الاصنج كذلك ان القائم باعمال السفارة السعودية سلمه حوالة بمبلغ ١٥ مليون ريال سعودي للغاية ذاتها •

وذكرت صحيفة «الثورة» الكويتية اليومية امس ان الامم المتحدة وزعت مواد غذائية على ضحايا الفيضانات الذين يبلغ عددهم ٥٠٫٠٠٠ شخص وان مساعدات تبلغ في مجموعها ٣٠٠٫٠٠٠ دولار خصصت للجمهورية العربية اليمنية •

وقال راديو صنعاء امس ان السيد عبد العزيز عبد الغني رئيس الوزراء ترأس اجتماعا عقدته لجنة الاغاثة لدراسة اوضاع ضحايا الفيضان والتعويض عليهم •

تعاون اقتصادي بين تشيكوسلوفاكيا وايران

براغ – رويتر – اتفقت تشيكوسلوفاكيا وايران على عقد اتفاق طويل الامد يتعلق بالتعاون الاقتصادي والعلمي والفني •

وقال بيان مشترك صدر امس عن زيارة السيد امير عباس هويدا رئيس الوزراء الايرانية ان المفاوضات على الاتفاق ستعقد في اجتماع تعقده لجنة مشتركة في طهران قريبا •

وبحث السيد هويدا في محادثاته مع نده التشيكوسلوفاكي لوبومير شتروغال في احتمالات التعاون في تنفيذ مشاريع صناعية وزراعية تهدف الى بيع انتاجها في اسواق غير اسواق البلدين • وتباحثا ايضا في مسائل مالية غير ان البيان لم يورد اية تفصيلات •

وشدد الجانبان على اهمية الوفاق الدولي وايدا فكرة عقد مؤتمر عالمي لنزع السلاح •

واتفق الجانبان على انه لا يمكن الوصول الى تسوية عادلة ودائمة لمشكلة الشرق الاوسط الا بتنفيذ مقررات مجلس الامن وانسحاب اسرائيل الكلي من الاراضي العربية المحتلة •

وقبل الدكتور شتروغال دعوة لزيارة ايران سيحدد موعدها في وقت لاحق •

تشييع جثمان الشرطة القتلى باسبانيا

جرت في مدريد امس جنازة ثلاثة من رجال البوليس قتلوا امس الاول على ايدي رجال الباسك انتقاما لتنفيذ حكم الاعدام في خمسة من زملائهم وحاولت عناصر يمينية خلال الجنازة اختطاف نعوش القتلى الثلاثة للسير بها في شوارع مدريد كما نادت بالثار لقتل رجال البوليس الثلاثة وادى هذا الى توقف الجنازة وتدخل البوليس من اجل تهدئة الخواطر • وحضر مراسيم الجنازة رئيس وزراء اسبانيا وجميع اعضاء حكومته • وقد استقبل رئيس الحكومة الاسبانية بهتافات معادية من قبل مئات من رجال البوليس الذين اشتركوا في الجنازة والذين طالبوه بالاستقالة •

منح انغولا الاستقلال في نوفمبر

كمبالا – يونايتدبرس – صرح امس ناطق بلسان منظمة الوحدة الافريقية ان البرتغال ستمنح الاستقلال لانغولا في شهر تشرين الثاني القادم حتى اذا واصلت حركات التحرير الثلاث خوض الصراع المسلح فيما بينها •

ومن الجدير بالذكر ان منظمة الوحدة الافريقية تبذل مساعي الان لانهاء النزاع المسلح في انغولا التي ظلت مستعمرة برتغالية اكثر من ٥٠٠ سنة •

اضرار جسيمة
لحقول التفاح في هضبة الجولان

حيفا – من يوئيل دار – ادى البرد الذي سقط ليلة امس الاول في هضبة الجولان الى اضرار جسيمة بحقول التفاح في مرج مجدل شمس •

وحسب تقدير اولي تاثرت نتيجة هطول هذا البرد الذي استمر زهاء نصف ساعة ما لا يقل عن ١٠٠ الف صندوق من التفاح الذي لم يتم بعد قطفه •

اما سائر تفاح الهضبة فقد تاثر بشكل ضئيل جدا لانه تم قطف اغلبيتها •

ويفيد مراسلنا ان خبراء وزارة الزراعة كانوا قد قدروا محصول التفاح هذا العام بـ ١٨ مليون ليرة الا انهم لم يحددوا بعد الاضرار التي نجمت نتيجة هطول البرد •

وحسب التقديرات الاولية يتراوح هذا الضرر بين مئات الالاف الليرات وربما ملايين الليرات •

وقد عاد يوم امس وامس الاول الى بيوتهم جميع التجار من المدن الكبرى الذين جاؤوا خصيصا لشراء التفاح وبيعه في فصل الشتاء وذلك عندما شهدوا ما حصل لهذا المحصول وهو على الاشجار •

تخريج فوج من الممرضين باشكلون

احتفل يوم امس في مدرسة التمريض في اشكلون بتخريج فوج جديد من الممرضين والممرضات القانونيين • وحضر حفل التخريج السيد فكتور شمطوب وزير الصحة وعدد من كبار موظفي الوزارة واهالي الخريجين • ويضم هذا الفوج سبعة من الطلبة العرب من المنطقة الشمالية في البلاد •

وتعلم المشتركون في نطاق هذه الدورة التي استمرت ثلاثة سنوات مواضيع في التمريض في اقسام لاطفال النساء وغرف العمليات بالاضافة الى الامراض العقلية •

ويذكر ان الطلبة قد تعلموا عادة العلوم الاجتماعية في جامعة بار ايلان في اشكلون ، وستعمل ثلاثة من الممرضات العربيات في مستشفى نهريا وخمسة ممرضين في المستشفى المركزي من اشكلون وممرضة واحدة في مركز طبي في اشكلون • هذا وعمل الممرضين في فترة تدريبهم التي استمرت ستة اشهر في مستشفيات مختلفة في البلاد وتقاضوا رواتب شهرية تتراوح بين ١٤٠٠ و ١٦٠٠ ليرة •

اقتراح برفع اسعار الرحلات الجوية

اوسلو – يونايتدبرس – انتهت امس اعمال الاتحاد الدولي للمواصلات الجوية المدنية واقترح فيها رفع اسعار الرحلات الجوية العالمية بنسبة ثلاثة بالمائة على ان تصل حتى نهاية العام الحالي الى ١٦ بالمائة •

وسيصادق اعضاء الاتحاد على قرار رفع اسعار الرحلات الجوية بشكل نهائي في وقت لاحق •

ايران عاقدة العزم
على المضي في خططها التطويرية

بون – رويتر – نسب الى شاه ايران امس قوله في مقابلة نشرت هنا انه سيقترض المال من الخارج بدلا من ان يحد من تطوير بلاده اقتصاديا وعسكريا بسبب انخفاض دخلها من النفط اكثر مما كان متوقعا له

وخصصت مجلة «دي زيت» المستقلة الاسبوعية التي تصدر في هامبورغ صفحة كاملة لمقابلة عقدها رئيس تحريرها ثيو سومر مع الشاه • وقال الهر سومر ان تفاؤل العاهل الايراني بمستقبل بلاده لا يزال كبيرا •

وقال الشاه انه يتوقع ان يبلغ دخل ايران بالنسبة الى الشخص الواحد دخل المانيا الغربية خلال ١٢ سنة • ويبلغ دخل المانيا الغربية الان اربعة اضعاف دخل ايران بالنسبة الى الفرد الواحد •

وقال الشاه ان ايران قد تضطر الى تاجيل حل بعض مشكلاتها ولكنها ستتمكن من سد ثغرات في خططها التمويلية بالحصول على قروض •

واضاف يقول في استطاعتنا استيعاب المال في اي وقت • وقد يكون من الحماقة بالنظر الى تدهور القوة الشرائية للمال بسبب التضخم عدم تحمل ديون • ومن الاوفر على كل حل ان نقترض بدلا من ان نبيع نفطنا بخسارة

اشتباك بين مسلح وشرطة في مونتريال

مونتريال – رويتر – قتل امس هنا سارق بنك مسلح اختطف سيارة باص كانت تقل طلاب مدارس وذلك في نهاية اشتباك بالرصاص مع قوات الشرطة •

وقتل في الحادث احد الطلاب ايضا ، متاثرا بالجراح التي اصيب فيها •

مشاريع تطويرية باليمن الشمالي بمساعدة بون

صنعاء – رويتر – وصل الهر ايغون بار وزير التعاون الاقتصادي الالماني الغربي الى هنا امس من القاهرة على رأس وفد من المسؤولين ورجال الاعمال •

وصرح الدكتور عبد الكريم الارياني وزير التنمية ورئيس دائرة التخطيط المركزي بان برنامج الوزير الالماني يشمل افتتاح طريق جنوب – صنعاء التي يبلغ طولها ٢٥٦ كيلو مترا والتي كلف شقها مبلغ ١٠٠ مليون مارك دفع كقرض للجمهورية العربية اليمنية •

وسيزور الهر بار واعضاء وفده موقع سد مأرب التاريخي ايطير فوق منطقة انجوف حيث تعتزم حكومة بون القيام بعملية مسح شاملة خصص لها مبلغ ثلاثة ملايين مارك •

وتعتزم المانيا الغربية تنفيذ مشروع للتنمية الزراعية يشمل مزارع للمواشي •

تشيلي تتضامن مع اسبانيا
استمرار الاحتجاجات ضد مدريد

مدريد – يونايتدبرس – اعرب امس الجنرال اوغوستو فينوشت ، رئيس الطغمة العسكرية في تشيلي عن تضامنه وتاييده مع الجنرال فرنسيسكو فرانكو رئيس الدولة الاسبانية •

وقال الجنرال فينوشت في برقية بعث بها الى الجنرال فرانكو قال فيها انه ازاء الحملة الدولية المعادية لاسبانيا فانه يعلن عن تاييد تشيلي المطلق لاسبانيا • واضاف حاكم تشيلي ان اولئك الذين احتجوا على احكام الاعدام ضد خمسة من الشبان الباسك في اسبانيا ، تنعدم لديهم القيم الخلقية لشجب اعمال الارهاب ومكافحتها •

وذكرت مصادر السوق الاوروبية المشتركة في بروكسل ان الدول التسع الاعضاء في السوق قد وافقت مبدئيا على تعليق المحادثات التجارية بين السوق واسبانيا •

واستمرت اعمال الاحتجاج في العواصم الاوروبية المختلفة على اعدام الخمسة الباسك في اسبانيا وعلى استمرار الحكم الدكتاتوري في اسبانيا •

انهاء خلاف بين ايطاليا ويوغوسلافيا حول مقاطعة

بلغراد – رويتر – اعلنت يوغوسلافيا وايطاليا اتفاقهما حول صيغة لانهاء ما يزيد على ٣٠ سنة من خلاف كان شديدا في بعض الاحيان حول مقاطعة في الشمال الشرقي من مرفأ تريستا الايطالي •

وقد قبل البرلمان اليوغوسلافي الاتفاق الذي وضع خطوطه العريضة السيد ميلوس ميتيتش •

ووافقت ايطاليا بمقتضى هذه الصيغة على التخلي عن اية مطالبة بمنطقة تقع الى الشرق من المدينة وتسمى القطاع ب بينما قالت يوغوسلافيا انها تعترف بالسيادة الايطالية حول منطقة مماثلة تقع الى الغرب مما يسمى القطاع أ •

★ تتمات ★

جنبلاط يطالب

مدينة خالية من اي نشاط اقتصادي فالمصارف المغلقة وكذلك مختلف المصالح العامة • واستمرت اعمال الاختطاف امس بينما هدد كمال جنبلاط بان الوضع سيظل على ما هو عليه من التدهور الا اذا سلم المسيحيون الموارنة قتلة الدروز الثلاثة • وكان الشبان الدروز الثلاثة قد قتلوا في حي عين الرمانة امس الاول •

هذا وقد وصل عدد القتلى منذ بدء الاشتباكات في شهر نيسان الماضي الى ٣٨٠٠ قتيل وجريح • وتم مساء امس التوصل الى اتفاق جديد لوقف اطلاق النار بواسطة لجنة المصالحة الوطنية •

★ تتمات ★ ★ تتمات

ضمان سوفياتي

التبادل حتى تصل قيمته الى ١٠ مليارات دولار خلال السنوات الخمس القادمة •

ويتواجد السيد شرايفر في موسكو الان لاقامة فندق تكلف اقامته ١٢٠ مليون دولار •

وقال كوسيجن ايضا انه يتوقع ان يتم التوصل الى اتفاق اخر لتقليص حجم الاسلحة الاستراتيجية • وبالنسبة للسياحة قال رئيس الوزراء السوفياتي ان بلاده معنية بعدد لا محدود من السياح •

مصر لن تشترك

موسكو بانها تنظم الحملات السورية والفلسطينية على مصر • وقالت هذه الصحف ان روسيا تتزعم هذه الحملة لانها تستتر من قبل الاطراف الاخرى قبل التوقيع على اتفاقية سيناء في الشهر الماضي •

ودعت امس مجلة المصور المصرية حكومة القاهرة الى الغاء معاهدة الصداقة والتعاون مع روسيا لان الاتحاد السوفياتي يحاول الايقاع بين مصر والدول العربية الاخرى •

اتهام مصري

وقالت «المصور» انه يمكن التحدث كثيرا عن الدور الذي لعبه بعض الخبراء السوفيات الذين عملوا عدة سنوات في مصر وحصلوا على الكثير من اسرارها •

وقد ارسل هؤلاء الخبراء اثناء حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، لوضع جميع المعلومات التي توفرت لديهم عن مصر ، تحت تصرف المحارب الاسرائيلي • ويذكر ان الرئيس انور السادات كان قد امر في تموز ١٩٧٢ بابعاد اكثر من ١٥ الف خبير سوفياتي عن مصر •

ديان : سياسة

لكن انهاء حالة الحرب لا يعني السلام • غير انها خطوة ضر تكن الدول العربية على استعداد الان لاتخاذها •

ومضى السيد ديان يقول انه اذا يتم التوصل الى انهاء لحالة فان محادثات مباشرة بين الدو واسرائيل قد تؤدي الى السلا يجب ان تجرى هذه المحاد شروط مسبقة •

نفي طلب تأ

وقال ان هناك ادراكا بضرورة تقدم سريع والتوصل الى الكونغرس والادارة الامير وقال ان الاتفاقية المرحلية واسرائيل هي ذات اهمية في الشرق الاوسط •

غير ان مصادر الكونغرس انه لا يمكن التوصل الى في الموعد الذي حدده الرئ جيرالد فورد وهو اليوم وقالت المصادر ان هناك او الشيوخ والنواب واللجان لضرورة اقرار الفنيين

وقد يتم التصويت ذلك يوم الثلاثاء القادم

وقد وصف السناتور ملفري من زعماء الحزب في مجلس الشيوخ الد الدكتور كيسنجر اعلم الخارجية بانه يتسم بالتي واضاف ان الوثائق التي وجرى استعراضها مع الامريكية لم تتضمن اي تعهد بتقديم مساعدات عسكرية لمصر

ولم يعرف بعد ما اذا كان نشر الوثائق المتعلقة بالالتزامات الاميركية وما القرار سيشمل جميع الوثائق منها فقط •

استنكار

مختار ووجهاء وشباب مخيم رقم اعين بيت الله وآل بركات في المخيم والضفة وسائر انحاء البلاد العربية يستنكرون بشدة الجريمة البشعة التي ارتكبت من قبل شاب طائش من عائلة بركات والتي لا علم لنا بها ولا نرضى عنها ابدا ، وكانت قتلا شديدا لا يقل عن تألم اهل الفقيد المرحوم – عائلة عيلة – ورغم ذلك الا اننا على استعدادنا بفرض علينا من اصول العرف العشائري

ضارعين الى المولى عز وجل ان يلهم آل عيلة الكرام الصبر والسلوان وحسن العزاء مكررين عزاءنا لهم سائلين المولى ان تبقى اواصر الاخوة والصداقة بيننا بالرغم من هذا الحادث المسؤول ، والهم الله الفقيد الغالي رحمة واسعة واسكنه فسيح جنانه . وانا لله وانا اليه راجعون •

هكذا من الأصل